الباب الأول

حياة هيكل

obeikandl.com

حيــاة هيــكل

تقـديـم

إذا استعـرضنا أحداث حياة الدكتـور هيكل رحمه الله، فسوف نعـرف أنه منذ فجر نشأته الأدبية أدرك بحاسـته الفنية«أن الكاتب المجيد فلذة من ضمير الإنسـانية، وضمير الإنسـانية باق على الدهر بقـاء الدهر». وعلى هذا فـقد كان -فـى أوقات فراغـه وفى انكباب زحمة الحياة وأعباء العمل- يحاول أن يخلو لنفسه، ليسجل بطبعه الفنى المرهف ما يضمن له الخلود فى دنيا الفن والأدب والفكر. وليس لدينا ما نقوله عنه أجل مما قاله هو من أن «للكاتب من المكانة فى النفـوس ما ليس لغيره من رجال الفـن -بل أكثر من رجال الفن- هو أداة انتقال الفكرة بين الناس جمـيعا، وهل كان لغير آثار الفن ومظاهر الفكرة خلود على الحياة؟»(١)

هذا الإدراك الواعى لخلود الفن والفكر، دفع هيكل ليكتب لنفسه صفحة مشرقة فى سجل الأدباء. ولكى ندرك مـا لآثاره الفكرية والأدبية من قيـمة لابد من أن ندرس هذا الفن وذلك الفكر على أنهما بعض ثمرات الشخصية المبدعة لهما، متمثلين طريقة الناقد الفرنسى «هيبوليت تين» الذى كان يعجب بـه هيكل أيما إعجاب، وطبق منهجه النقدى فى بعض دراساته الأدبية وترجماته الشخصية، وهذه الطريقة تعنى -على ما يقرر تين- «أن الإنسان ثمرة بيئته أكثر من كونه ثمرة فرديته».

فالأدب نتيـجة تفاعل الفنان بالبيئـة الاجتماعية والثـقافية والسياسـية. ودراسة هذه العوامل وأثرها فى نفسيتـه، خطوة هامة لمعرفة مدى تأثره بها، وانفعاله معـها، وموقفه منها. وهذه الخطوة تكون محاولة موفقة لدرس الفنان فى محيطه وموقفه منه، وأثر هذا المحيط فى إنتـاجه. وعلى هدى من مـذهب تين أيضا، ومن أجل إبراز صـورة البيـئة والعصر اللذين كان يعيش فيهما هيكل، سنتحدث -بإيجاز- عن صورة العصر السياسية

(١) فى أوقات الفراغ: الدكتور هيكل، ص ٢٨.

والاجتماعية والثقافية كخطوة أولى تضئ الطريق لمعرفة الإطار، الذى كان يعيش فيه المترجم له. وعن طريق هذا الإطار نستطيع أن نعرف قيمة الأديب والمفكر بالنسبة للعصر الذى عاش فيه، ذلك أن دراسة الفن والأدب تعنى فى المقام الأول بربط الأديب بالمجتمع، الذى عاش فيه لمعرفة مدى تفاعله معه وموقفه منه. كذلك نعرف قيمة آثار المترجم له التى ستبرز بالتالى سمات شخصيته الأدبية، ومن هذا كله نستطيع أن نحكم لهذه الآثار أو عليها حسب الواقع الذى نشأت فيه وحسب قيمتها الفكرية والأدبية.

obeikandl.com

الفصل الأول

التيارات المعاصرة

سياسة مصر فى مطلع القرن العشرين

إذا أردنا أن نحدد طبيعة الحالة السياسية التى كانت عليها مصر أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين، وجدنا عجبًا يحار العلم والتاريخ فى تسميته: «ذلك أن المركز القانونى لمصر من وجهة النظر الدولية لا يخضع لتكييفٍ مُعيَّن يعرفه القانون الدولى، فهى ليستْ دولة مستقلة، وليست مستعمرة، وليست محميةً. وهى من جهة أخرى ليس لها دستور سياسى يمكن أن يكون له اسم خاص فى القانون الدولى، فهى دولة تابعة لتركيا اسمًا، وهى فى الحيازة البريطانية الفعلية التى تخضعها لنظام الحماية الواقعية. فماذا يمكن تسمية مثل هذا الوضع؟»[1]

كانت مصر إذًا تابعة للسيادة العثمانية، مستقلة داخليا عن تركيا، محرومة من هذا الاستقلال الداخلى بسلطان الإنجليز. للأجانب المقيمين بها على اختلافهم امتيازاتٌ تجعلهم أعلى من أبناء مصر رأسًا وأوفر منهم كرامة. هذه المجموعة من العلل السياسية بجوار غيرها من علل اجتماعية وثقافية، كانت تجثم على صدر مصر، وتُضعف روحها المعنوية أيَّما ضعف. فأيها يجب البدء بالتخلص منه؟ فالتخلص منها جميعًا دفعةً واحدة أمر غير ميسور، هنا اختلف الرأى، وعلى أساس هذا الاختلاف فى الموقف الفكرى قامت الأحزابُ المصرية إذ ذاك.

ولما كان أمر هذه الأحزاب معروفًا فى كتب التاريخ، فإننا **سوف نعرض صورتها كما صورها هيكل** فحسب، باعتباره عاصر بعضها وشارك فى البعض الآخر، بل لقد امتد به الأمر حتى تولى رياسة حزب الأحرار الدستوريين. وهذه الصورة قد رسمها هيكل - بقدر من التفصيل فى مذكراته فى السياسة المصرية - المطبوعة والمخطوطة.

* * *

(1) La Dette publique Egyptiene: par Haekel. p. 5.

الحزب الوطنى: «عاد مصطفى كامل من أوربا سنة ١٩٠٠ بعد أن أتم دراسته فى فرنسا، وعاونه الخديوى عباس حلمى على إصدار جريدة اللواء وتأليف الحزب الوطنى لمقاومة سلطان الإنجليز ولمطالبتهم بالجلاء عن مصر. وواضح أن هذا الحزب كان يمثل الاتجاه الوطنى. وقد لقيتْ دعوة مصطفى إلى الجلاء آذانا مصغية من شباب مصر المتعلم، فآمنوا به زعيما وانضموا إلى حزبه. على أن الإنجليز كانوا يقدرون أن مثل هذه الحركة آتية لا محالة، فشجعوا على إنشاء جريدة المقطم عقب الاحتلال مباشرة للدفاع عن سياستهم. وقد لخصوها فى أنهم جاءوا لإنقاذ مصر من الخراب المالى الذى جره إسماعيل عليها، ولإنقاذها من استبداد الخديوى ومن حوله من الأتراك والجراكسة، ولإقامة العدل بين أبنائها»(١)

ومعروفٌ أن ادعاءات الإنجليز هذه، لم تكن تجد سميعًا إلا من بعض ضعاف النفوس.. وبعض المتمصرين.

الاتجاه الدينى وجريدته: كان من العسير أن تقف تركيا مكتوفة الأيدى أمام ما تفعله إنجلترا فى مصر ومحاولتها سلب مالها من حقوق بمصر، فعمدت إلى الناحية الدينية، ولذلك استعانت بالثائر المسلم جمال الدين الأفغانى الذى جاء إلى مصر، يلقى تعاليمه فيها. وقد التف حوله تلاميذ أخذوا عنه مبادىء الحرية، ورددوا معه الصيحة عالية بأن العالم الإسلامى فى خطر بسبب الاستعمار الأوروبى، وأنه لا ينقذ هذا العالم الإسلامى إلا إن يكون كتلة واحدة تقاوم هذا الاستعمار. وكان الشيخ على يوسف يصدر جريدة «المؤيد» ويؤيد هذه الحركة الدينية. وكان مصطفى كامل يعطف على هذه الحركة ويؤيدها خاصة فى أواخر أيامه بعد أن يئس من مساعدة فرنسا. لكن الشىء الذى لم يرتح إليه مصطفى إزاء سياسة الشيخ هو اعتداله تجاه الإنجليز اعتدالا مرجعه إلى أن الشيخ كان من أبناء الفلاحين الذين لم ينسوا حكم الأتراك ومظالمهم.

حزب الأمة وجريدته: فى سنة ١٩٠٧ تألف حزب الأمة وجعل «الجريدة» لسان حاله، وكان مدير تحريرها أحمد لطفى السيد. وأخذتْ تنادى بسلطة الأمة وتطالب بالدستور وبالحرية الفردية، وكانت لذلك ذات نزعة لا شىء فيها من تأييد سلطة الخديوى أو الإنجليز. زد على هذا أنها لم تكن تؤيد تبعية مصر لتركيا. وكان مشربها هذا غريبًا عند الجمهور -كما يقول هيكل الذى عاصر هذا الحزب وشارك فى نشاطه-

(١) مذكرات فى السياسة المصرية: هيكل، جـ ١ ص ٢٣.

لكنه لم يكن فيه شيء من الغرابة عند الصفوة المتعلمة التى تريد لمصر استقلالاً وحياة نيابية.

وهذا الحزبُ يعد صورةً فريدة فى ذلك العصر، ومن هنا نستطيع أن نفهم سر التباعد بينه وبين غيره. فالحزب الوطنى يريد جلاء الإنجليز والاستقلال، لكنه يرحب ببقاء نفوذ الأتراك. بينما كان الاتجاه التركى يدعو إلى جامعة إسلامية.. وهل يمكن أن تقوم لتلك الجامعة قائمة إذا لم يشملها الخليفة التركى بعطفه ورضاه؟ كذلك كان حزب الإصلاح الذى أنشأه الخديوى للترويج له. كما كانت هناك أقلياتٌ تنظر إلى الإنجليز بعين العطف. هذا بينما كان حزبُ الأمة يدعو إلى الجلاء التام فى رفقٍ ولين، والاستقلال عن إنجلترا وتركيا وضرورة الإصلاح النيابى وإصدار الدستور، لذا لم تتسم دعوة حزب الأمة بالعنف بقدر ما اتسمت بالتفكير العميق. وعن حزب الأمة يقول تشارلز آدمز: «وعندما دخل حزب الأمة ميدان السياسة كان أول حزب سياسى له برنامج ونظام فى مصر، وكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجا مفصلا، يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعًا.. وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك»(١)

حزب الإصلاح وجريدته: فترت العلاقة بين الخديوى والحزب الوطنى، لأن ألدون جورست لما تولى منصب المندوب السامى عدل عدولا تامًا عن سياسة سلفه كرومر، وعمل على إيجاد جو من التفاهم والاتفاق بينه وبين الخديوى، أى إن السلطة الشرعية والفعلية قد تآلفتا كما يذكر لطفى السيد، ومن ثم انفسح المجال أمام الخديوى فأصبح يحقق بعض أغراضه. «إزاء هذا اضطر محمد فريد الذى كان رجل عقيدة لا يعرف فى الوطنية مهادنة أو مساومة -كما يقول هيكل- أن يُغضب الخديوى، حتى لا يظن أن الحزب الوطنى يعمل لمصلحة الخديوى لا لمصلحة مصر(٢)».

كان هذا موقفًا متشددًا من الحزب الوطنى، بينما قويت العلاقة بين الخديوى والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد الذى ألف حزبًا أسماه «حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية». وكانت المؤيد تلوح للناس بالفكرة الدستورية التى يطالب بها لطفى السيد بإخلاص. وهذه فيما يرى الباحث محاولة من الخديوى عباس حلمى، ليكسب عطف

---

(١) الإسلام والتجديد فى مصر: ترجمة عباس محمود، ص ٢١٤.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٣٨.

obeikandi.com

الشعب بعد أن كسب عطف المعتمد البريطانى.

ولكن لم يطل عـهد الائتلاف فـقد توفى جورست، وخلفـه كتشنـر الذى بدأ ينفذ سياسـة كرومر بروح عسكرية صارمـة. وتغيرت السياسـة الدولية بعد ذلك حين بدأت ألمانيا تبـسط نفوذها على بعض مناطق الإمبـراطورية العثمانيـة، وفكرت فى ربط ألمانيا بتركيا عن طريق خط حديدى. ثم فكرت فـى إنشاء سكة حديد الحجاز. وبدأت تتطلع إلى ممتلكات تركيا فى إفريقية. لذا بدأت مخاوف إنجلترا من هذا الموقف الدولى تدفعها إلى أن تُشدد قـبضتـها على المواقع الاستـراتيجيـة فى البحر المتـوسط. وإذا كانت قناة السويس تعد فى نظر إنجلترا يـومئذ مفتاح الهند، فقد حـرصت على تقوية سلطانها فى مصر وعلى الاستئثار بها. وقد بعثت كتشنر ليعد العدة لما يحتمل من حرب مقبلة. ولم يكن فى مـقدوره أن يفعل ذلـك إلا إذا جمع فى يده السلطة، وجـعل الخديوى صـفرًا على الشمال.

ومع بوادر قيام الحرب العالمية الأولى ومـا تلاها من إعلان الحماية على مصر تدخل مصر، بل يدخل العالم سنة ١٩١٤ مرحلة جديدة فى التاريخ الحديث. وهكذا نستطيع أن نلخص سياسة ذلك العصر فى ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين من أن «هذه الفترة فى تاريخ الحياة المصرية كانت فترة الصراع بين المصريين والإنجليز[(١)]

تلك هى أهم التيارات السياسية التى كانت تسود مصر كما صورها هيكل فى الوقت الذى شب فيه عن الطوق. وبدأ كشاب مثقف يعى سياسة بلده، ويتصل ببعض ساستها عند أستاذه لطفى السيد فى صحيفة الجريدة - كما سيأتى.

* * *

٢ - الحياة الاجتماعية وحركات الإصلاح

مما لا شك فيه أن الحملة الفرنسـية (١٧٩٨ - ١٨٠١) على مصر قد نبهت الأذهان إلى ما يجرى فى أوربا من تغير شامل فى كافة نواحى الحياة. وسرعان ما منيت الحملة بالفشل من الناحية الحربية، لكنهـا بلا شك كانت الناقوس الذى أعلن فى مصر وجوب اليقظة ومسايرة التقـدم، فاستيقظت مصر يقظة شاملة فى عـهد محمد على، الذى بدأ

---

(١) الدكتور محمـد حسين هيكل. بإشراف أحمد لطفى السيد، ص ٥٨، والكتاب عبـارة عن مقالات كتبتْ فى ذكرى تأبين هيكل.

يرسل البعثات إلى فرنسا رغبة فى إنشاء إمبراطورية مصرية ممتدة الأطراف قائمة على أسس ثابتة. وكان المجد السياسى -أكثر من غيره- هو الذى يبهر محمد على ويلفت ناظريه. ومن أجل بناء جيش قوى يضمن بقاء الإمبراطورية التى يحلم بها أرسل البعثات لتعلم الطب والهندسة والعلوم، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من ذلك فإنه من الممكن القول: إن تيارات فكرية وثقافية قد بدأت تسير فى رفق وأناة، لتؤسس مفاهيم جديدة فى دنيا الفكر والأدب. لكن أوروبا الحاقدة عزَّ عليها أن ترى مصر تستيقظ فألبت عليها الباب العالى فى تركيا، وكان اتفاق لندن سنة ١٨٤٠ بمثابة ضربة قاضية لآمال محمد على، وبدأت إمبراطوريته تنكمش إلى حدود مصر وبعض أجزاء السودان.

وبانتهاء البعثات أصبح الخيط الذى يصل ما بين الثقافة الأوربية والمجتمع العربى فى مصر واهيا أو أشبه بالواهى. ثم جاءت كارثة الاحتلال سنة ١٨٨٢، وقبلها بيعت أسهم مصر فى قناة السويس، وعلى هذا فقد أصبح من الضرورى حسب منطق الأحداث أن ترتبط مصر بأوربا المستعمرة وصاحبة أكبر نصيب فى أسهم قناة السويس. ومن هنا بدأت تأتى فى صورة ضعيفة فى بداية الأمر ولكنها منتظمة -بدأت تأتى بعض التيارات الاجتماعية والظواهر الأدبية والسياسية سواء عن طريق من يذهبون إلى أوروبا ويعودون، أو من يأتى إلى مصر من الأجانب. لذلك بدأت أشياء جديدة ولافتة تطفو على سطح المجتمع المصرى، فأخذت -مع بداية القرن التاسع عشر- تُثار مسائل جديدة لأول مرة مثل رأى الدين ورجاله فى شرب الخمر ومشاهدة الرقص والتمثيل ولبس الزى الأوربى وحرية العقيدة والفكر ومنزلة المرأة ومكانتها فى المجتمع وهل لها حق فى أن تتعلم وتعمل أم لا؟ وكذلك موقف الدين من تعلم العلوم التطبيقية وما إلى ذلك من مسائل فكرية وثقافية، لم يكن الكثيرون إذ ذاك يستطيعون أن ينظروا إليها نظرة بعيدة عن الدين.

بدأ يحدث حول هذه الأمور جدال ونقاش طويل، وكان أول من تعرض لها المفكرون والكتاب وأصحاب المسارح. ثم ظهر كتاب أدبى ممتاز هو «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى، وتدور حلقات الكتاب حول ما ينبغى أن نأخذه أو نتركه من الحضارة الأوربية الوافدة (هذا الكتاب تجميع لمقالات نشرها المويلحى من قبل فى مجلة «مصباح الشرق» لإبراهيم المويلحى). بينما هذا الكتاب يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى

Obeikandl.com

نجد تلاميذ جمال الدين، وخاصة الإمام محمد عبده، يضطلعون بمهمة تطوير النظرة الجامدة إلى الدين وبمحاولة تطوير نظرة رجال الدين إلى الحياة والثقافة، ومن هنا قاموا بحركة إصلاح دينى شاملة. ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق «أن دعوة الإمام محمد عبده تنتظم أمورًا ثلاثة:

١ - تحرير الفكر من قيد التقليد، حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان.

٢ - اعتبار الدين صديقًا للعلم لا موضعًا لتصادمهما، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها، وهما حاجتان من حاجات الفكر لا تغنى إحداهما عن الأخرى.

٣ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى(١)».

ويضيف هيكل فى هذا الصدد أن الشيخ محمد عبده «قد ذهب فى غير تردد إلى محاربة الجمود، الذى قضى على الأمم الإسلامية وجعلها طعمة للاستعمار الأجنبى، لأنه قيد العقل فى هذه الأمم بقيود منعته من الانبعاث فى تفكيره إلى غاية ما يستطاع بلوغه، لإدراك الحق والجمال فى خلق الله والسمو بهذا الإيمان فوق كل عبودية لغير الله جل شأنه(٢)».

ولا يهمنا الآن أن نذكر ما تعرض له الإمام من اضطهاد بقدر ما يعنينا ما أحدثه من ثورة فكرية ودينية اضطرت الكثيرين من خصومه إلى أن يعترفوا بفضله وبما له من أياد فى الإصلاح. وكان هيكل الشاب إذ ذاك من المعجبين بالشيخ ودعوته، فيقول: «وكانت دعوته الإصلاحية موضع إعجابى، وقد دعانى ذلك لقراءة كتابه «الإسلام والنصرانية» وكتاب أستاذه «الرد على الدهريين». وأذكر أنه قد كان لكثير من مقالاته فى جريدة «العروة الوثقى» التى كان يصدرها فى باريس أثر أبلغ الأثر فى نفسى»(٣)

ومن الدعوات الإصلاحية البارزة أيضا **الدعوة إلى تحرير المرأة**، لذا نجد معظم المفكرين إذ ذاك لهم رأى حيالها. وأول من تعرضوا لها رفاعة الطهطاوى، الذى أعجب بالمرأة الباريسية حين ذهب مع البعثة التعليمية على نحو ما يذكر فى: «تخليص الإبريز فى

(١) لمحات من حياة الإمام: عبد المنعم حمادة، ص ١٤٣.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٢٨.

(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩.

obeikandl.com

تلخيص باريـز»، ثم يعلن بصراحة وجـرأة بعد ذلك فى «المرشد الأمـين» ضرورة تعليم المرأة. كذلك أحمد فارس الشدياق فى كتابه «الساق على الساق» يفتق بعض موضوعات حرية المرأة، وعبد الله والنديم على صفحات «الأستاذ» يتناول هذا الموضوع أيضًا.

ويذكر آدمز أن «من أوائل من دعوا إلى هذا محمد عبده أيضًا، وأن من أهم الأفكار الجوهرية التى برزت فـيما كتبـه الشيخ وصحيـفة المنار ضرورة تربية البنات وتعـليمهن وإصلاح الحياة الاجتماعية والعادات التى تمس حياة المرأة»(١).

لكن الذى يراه الباحث هو أن جهد الشيخ لم يطل فى إبراز هذه المشكلة، وإنما كتب لأحد أنصاره وهو قاسم أمين أن يتخذ من ميدان الدفاع عن المرأة مجالاً تبرز فيه جهوده وأهم أعماله. ويفرد لها من ناحية الكم مؤلفين كاملين. ويعلن ذلك بصراحة مبينًا آراءه فى كتاب «تحرير المرأة» ثم كتاب «المرأة الجديدة».

وتعرض قـاسم أمين لاضطهاد كبـير من المجتـمع لكنه صمد، فـقد كان كثـير من الشبـاب المتعلم يقف إلى جواره، كمـا شاركتْ فى تعضيـد دعوته من السيدات بـاحثة البادية ثم هدى شعراوى. ويذكر هيكل أن ظهور الكتاب الأول «كان حدثًا خطيرًا، فقد اضطربت له آراء بعض الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم، وأبدى الخديوى عباس سخطه على الكتـاب ومؤلفه. على أن الآراء التى حواها الكتاب أثارت تطلع الشبـاب فجـعلتهم يفكرون فى الأمر جـديًا، رأى أكثرهـم فيه مـروقًا من الدين وتمهيـدًا للإلحاد، ورأى بعضـم أنه حق وأنه الوسيلة الوحيـدة لخلق شعب يدرك الحـياة إدراكا صحيحا»(٢).

***

موقف هيكل إزاء حركات الإصلاح

إن من يقرأ مـذكرات هيكل فى باريس يسـتطيع أن يتلمس جليًا مـدى اضطرابه فى قبول بعـض الأفكار الدينية وخاصة الغـيبى منها. ويبدو أنه كـان على وفاق مع الدين طوال إقامـته فى مصـر، ولما سافر إلى باريس بدأنا نسـمع نغمة جـديدة يذكرها أوائل أكتوبر سنة ١٩٠٩ فى يومياته المخطوطة -أى بعد ثلاثة أشهـر من سفره- فهو لكثرة ما قرأ فى كـتب الأدب والاجتمـاع وما رأى من مشاهـد الحياة الباريسـية «أصبح مـزعزع

(١) الإسلام والتجديد فى مصر، ص ٢٢١.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٢٥.

obeikandl.com

الاعتقاد فى أن الدين لازم لحفظ كيان الخلق العام». ثم يقرأ كتاب توماس كارليل عن البطولة والأبطال فيراوده الشك فى الكتب الدينية، ويرى أن الأنبياء مثل الأدباء أو الشعراء كل منهم يصدر عن إلهام خاص، أما الغيبيات فهذه أمور يحوطها الشك.

بعد هذا الشك بأيام نجده يذكر فى إيمان عميق أن «الكتب المقدسة أمل الإنسانية الكبير فى أن تصل إلى كمالها وتبلغ الغاية التى أعدتها لها القدرة الإلهية».. ثم يضيف: «اخلص روحك من ظلمات الباطل تصل من الحقائق إلى ما حواه هذا العالم، وتطلعك الطبيعة على سنتها الأزلية»، أى إن البيئة الجديدة بآثارها المادية والفكرية قد أثارت فى نفسه قدرًا من الشك.

ويبدو أنه بدأ يتأمل على مذهب ديكارت، فأسلمه التأمل والتفكير إلى أن يشك فى كل شىء حتى فى بعض أمور الدين والغيبيات التى يعدُّ التفكير فيها ذروة التأمل الذهنى، لكن نشأته الريفية الوادعة وإيمانه الدينى جعلاه ينهى بسرعة مرحلة الشك الدينى ويقصر الشك على مسائل السياسة والحكم والحياة الاجتماعية والفكرية. ولذا نجد كثرة وقوفه عند مسأله تحرير المرأة، إذْ لا يفتأ وهو فى باريس يذكر مشكلة المرأة المصرية: «وظللت وبهى الدين بركات نتحدث فى حال المرأة عندنا مدة ليست بالوجيزة من الزمن، تلك الحال التى لا يفرغ القول منها والتى تثير فى القلب من دواعى الشفقة على الأمة بأسرها ما يذيبه، حال الانفصال الدائم بين الجنسين مع وجوب اتفاقهما وتعارفهما، حال انحطاط المرأة إلى حضيضها المشين، حال جهلها. وفوق كل هذا طريق الزواج السيئة التى لا تدع لرجل مجالاً فى أن يكون قديرًا على معرفة المرأة التى سيكون لها زوجًا إلا أن يعرف اسمها ساعة العقد وينظر فى وجهها بعد اجتماعهما فى منزل واحد،والواقع الذى لا يمكن إنكاره أن كل شىء عندنا دخلت فيه مصلحة من مصالح المرأة، أو تعلق به أمر من أمورها هو ناقص نقصًا جوهريًا، فكأن المرأة عندنا النقص فى كل ما يختص بها أو يكون لها يد، مهما تكن ضئيلة فيه»(١)

وعلى هذا اقتصر تفكيره فى هذه البيئة الجديدة -كما يبدو من يومياته -على بعض مشاكل الحياة العامة، فبدأ يفكر فى حال أمته وما ينبغى أن يتوافر لها من سُبل الإصلاح الاجتماعى حتى وهو نازح عن بلده، ونحن نعلم أن أول مقالة ظهرت له فى «صحيفة

(١) يوميات باريس: يومية ٧ أغسطس سنة ١٩٠٩، وهى يوميات لا تزال مخطوطة - كتبها فى باريس . (م ٢ - حياة هيكل).

obeikandi.com

الجريدة» سنة ١٩٠٧ -أى قبل سفره- كانت عن حرية المرأة، ثم كتب بعد ذلك وهو فى باريس أول رواية مصرية، أبرز فيها كثيرًا من مشاكل الحياة الاجتماعية فى مصر سيما المرأة، وظلت هذه لازمة من أخص لوازمه الأدبية، فرواياته وأغلب أقاصيصه أبطالها سيدات، يصور فيها ما يخضعن له من ظروف اجتماعية قاسية.

لم يكن هيكل إذًا بعيدًا فكريًا عما يجرى فى وطنه حتى وهو بعيد عنه ـ من دعوات الإصلاح، وكشاب مثقف يملك قدرة التعبير والنشر ـ عن طريق «الجريدة» ـ شارك فى إرساء بعض الدعوات الإصلاحية لا سيما الدعوة إلى تحرير المرأة، بل نقل هذه الدعوة أيضًا إلى مجال القصة والرواية، فقد بدأ «هكذا خلقت» من النقطة التى انتهى فيها عند «زينب»، إذ عاد ليعالج مشاكل التطور الاجتماعى الذى شهدته مصر فى نصف القرن الأخير وأثر ذلك بوجه خاص على حياة المرأة – مما سيفصله البحث فيما بعد.

* * *

٣ – التيارات الفكرية والأدبية

إن الأحزاب المصرية ـ فى ذلك العهد ـ أضرت بمصر كثيرًا من الناحية السياسية، أما من الناحية الفكرية فقد أحدثت تطورًا كبيرًا. فقد كان لكل حزب رؤية سياسية يدافع عنها، ثم أنشأ كل حزب جريدة يفلسف فيها مبادئه ويجعلها منتدى لأنصاره وأعوانه. ولذا فقد أزكت الصحافة الحزبية وغير الحزبية لذلك العهد الحياة الفكرية فى مصر وأنعشتها. وبرز فى هذا الطور عبد الله النديم، وعلى يوسف، ومصطفى كامل، ومحمد رشيد رضا، ولطفى السيد. وكانت كل جريدة بمثابة مدرسة فكرية تدافع عن دعوتها، ولذا يشارك الباحثُ آدمز فى تسمية هذا الطور من أطوار الكفاح الوطنى فى سبيل الحرية باسم «الطور الصحفى».

يتصل بتلك التيارات الفكرية التى أزكتها الصحافة الحزبية صور الحكم التى يتطلبها كل فريق ومفهوم الحرية والحياة الدستورية. كل ذلك كان بلا شك منبهًا لثورة فكرية شاملة. وكما كانت تهدف إلى حرية مصر أو بعبارة أدق إبراز شخصية مصر السياسية، هدفت أيضا إلى إظهار الشخصية المصرية فى الفكر والأدب، إذ لا ينسى أن معظم هذه الصحف شاركت فى بعث الحياة الفكرية والأدبية بما كانت تنشره وتذيعه من نثر وشعر، فقد نشر المويلحى «حديث عيسى بن هشام» فى مجلة «مصباح الشرق» قبل أن يصدره فى كتاب سنة ١٩٠٦، ونشر قاسم أمين «تحرير المرأة» تباعًا فى جريدة «المؤيد» قبل أن يصدره فى كتاب، وغيرهما الكثير من الأدباء والمفكرين فعل ذلك فى كثير من النواحى

Obeikandi.com

الثقافية المتنوعة.

وإذا ما نظرنا إلى الشعر والشعراء نظرة عاجلة أذهلتنا الصحوة الهائلة على يد البارودى (١٨٣٨ - ١٩٠٤) الذى أيقظ الشعر من رقدته وبعثه بعثًا جديدًا، كما عبد أسلوب الشعر ونسق ثوبه وألفاظه وخلصه مما علق به من وشى وزخارف كادت تودى بحياته الفنية. ولعل هذا هو سر إعجاب هيكل بالبارودى وشعره وإخلاصه الجاد فى نشر ديوانه، وكتابة تقديم نقدى رائع له. ثم يأتى حافظ إبراهيم (١٨٧٠ - ١٩٣٢) فنجده يتمثل البارودى وينظم شعره على منوال قريب من منهجه، وهو إن كان يقل عنه ثقافة فهو يفوقه فى تصوير النفس المصرية التى كانت تطمح إلى الاستقلال الذاتى، كما يصورها أحيانًا فى بؤسها وما يصدر عنها من نغمات حزينة. ولعل فى هذا سر تسميته «شاعر الشعب».. و«شاعر النيل».

ويظهر أيضًا أحمد شوقى (١٨٦٩ - ١٩٣٢) ولا يلبث أن يملأ الأسماع فى مصر وغيرها بشعره العذب المتعدد الألوان والأغراض والمعانى، فيصل بالشعر العربى إلى مكانة سامية، فهو من أوائل من طوعوا الشعر العربى للتمثيل والغناء فى العصر الحديث. كما يظهر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) الذى يتغنى كثيرًا بالحرية السياسية وبعض العواطف الرومانسية.

وقد ظهر فى هذه الفترة أيضا إسماعيل صبرى شيخ الشعراء، وأحمد محرم، وعلى الغاياتى. كذلك ظهر فى هذه المرحلة شعراء مدرسة خطيرة فى الشعر والنقد تأثرت بالثقافة الإنجليزية، وهى «مدرسة الديوان» التى أنشأها شكرى والعقاد والمازنى، وهذه المدرسة أحدثت تغيراتٍ جوهرية فى مضمون القصيدة العربية، كما أحدثت ثورة كبيرة فى إبداع الشعر ونقده.

واللافت فى هذه الحركة الشعرية الكبيرة هو سرعة تطور الشعر، سواء من ناحية الأغراض أو من ناحية المعانى والألفاظ، وسر ذلك يعود أيضًا إلى الصحافة التى خدمت الشعر فى ناحيتين:

الأولى: إنها ساعدته على إبراز الشخصية المصرية فى الشعر: لأنها ربطت الشاعر بأحداث عصره،وعلى قدر هذه المشاركة يوصف الشاعر بالخيانة أو الوطنية، ومن هنا كان أكثر الشعراء يتسابقون فى مشاركة الشعب أحداثه وانفعالاته. وإن دراسة شعر شوقى مثلا تكشف عن المراحل السياسية التى مرت بها حياته الشخصية وحياة الشعب العربى فى مصر من هذه الناحية السياسية، كذلك شعر مطران نجد فيه مراحل مختلفة

تتميز كل واحدة منها عن غيرها، فعنده شعر الثورة حين كان فى لبنان، ثم شعر الوحدة والحرية حين غادرها، وأخيراً شعر المناسبات حين نزل بمصر. هكذا استطاعت الصحافة أن تصهر فى بوتقتها كل مقيم أو نازح، وتجعله يدور فى فلك السياسة المصرية، ويعبر عن روح الجماهير التى يشاطرها فى الاتجاه السياسى. من هنا أبرزت الروح المصرية والأحداث السياسية والفكرية حين جعلت من المحتم على الشاعر أن يعيش مع المناسبات التى تعيشها الجماهير.

الثانية: هى أن الصحافة حين أفسحت صدرها للشعر جعلت من المحتم عليه أن يتنازل عن تقعره اللفظى، ليصبح سهلاً سلسا فى متناول معرفة القارئ العادى. ونرى هذا خاصة فى بعض شعر مطران الخاص بالمناسبات، وشعر شوقى التمثيلى والغنائى كما أن شعر المناسبات فيه كثير من هذه الخصائص أيضاً.

* * *

تطور النثر.. ودور هيكل:

وإذا ما حاولنا تطبيق قضية النهضة الأدبية على النثر وجدنا نفس الشئ ، ذلك أن **الحياة السياسية والصحفية كانت المحرك الأول لنهضة النثر بصفة عامة.** وفى فلك الأحزاب والسياسة تحرر النثر، وانفك عقاله بعد أن كان يرسف فى أغلال البديع والزخرف، وأصبح من المحتم على الكتاب أن يصلوا بأفكارهم إلى جماهير الشعب، ومن هنا راعوا ضرورة الاهتمام بالفكرة وموضوعية العرض أكثر من العناية بتفاصح العبارة وزخرفة القول. ويعنينا الآن أن ننوه بدور مدرسة «الجريدة» التى تتلمذ فيها هيكل، والتى تخرج فيها أعلام المدرسة الصحفية والأدبية الحديثة. وهذه المدرسة طورت المقال الصحفى من ناحيتى الشكل والمضمون، كما أنها طوعت النثر العربى للمقال الأدبى والصحفى والقصة والرواية مما سنفصله بعد.

ويتصل بالسياسة والصحافة **الخطابة الساسية،** التى بدأت تظهر مع ثورة عرابى فى ثوب جديد معبرة عن روح الجماهير فى الحرية والديموقراطية. وعن عرابى يذكر عبد الرحمن الرافعى: «وكان للباقته وفصاحته فى الكلام واستناده إلى بعض الأحاديث النبوية والحكم المأثورة، تأثير كبيرٌ فى نفوس الضباط اجتذبهم إليه، ومال بهم إلى تلبية ندائه والاستماع لنصائحه والاقتناع بدعوته»(١).

(١) الزعيم أحمد عرابى. عبد الرحمن الرافعى ، ص ١٤.

كذلك لا ننسى عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، ولا ندوات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، ولا خطابة مصطفى كامل وغيرهم ممن كان لهم فضل كبير فى تطور النثر وحداثة أسلوبه..

وفى معرض الحديث عن الصحافة لا يغمط دور بعض الشاميين الذين شاركوا بقدر كبير فى النهضة الأدبية حين نزحوا إلى مصر لاتصالهم من قبل بالآداب الأجنبية، فلما جاءوا إلى مصر كتبوا فى الصحافة، بل أنشأوا بعض الصحف ودور النشر، وترجموا بعض الكتب والروايات، وكتبا لا تحصى فى الاجتماع والقانون والاقتصاد، كما أنهم شاركوا أيضاً فى النهضة المسرحية والتمثيلية.

ومن هذه الشخصيات الشامية ترد أسماء: إبراهيم اليازجى - زينب فواز - جرجى زيدان - شفيق ديمترى (دار المعارف) - بشارة تكلا (الأهرام) - عبد الرحمن الكواكبى- يعقوب صرّوف - خليل مطران.. وغيرهم الكثير.

هكذا أدت السياسة والصحافة خدمات لا تنسى إلى الشعر والنثر العربى وقادتهما إلى حركة تطور ورقى شاملة. كذلك أدى إلى رقى النثر ظهور طائف من المثقفين من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق أخذوا يترجمون إلى العربية بعض الكتب الأدبية الفرنسية والإنجليزية رغبة منهم فى تغذية الثقافة العربية، وأخص من هولاء بالذكر: فتحى زغلول، ولطفى السيد، «وقد ترجم الأول كتاب: سر تقدم الإنجليز السكسونيين، أما الثانى فقد عنى بترجمة كتب أرسطو وغيره، فكان الأول باعثا على البحث فى عيوبنا الاجتماعية ، وكان الثانى رائداً لاتصالنا بالفلسفة الغربية فى القديم والحديث، ولكن ليس ذلك هو المهم عندهما، ولكن المهم أنهما قد دفعا هما وأمثالهما - ممن تثقفوا فى عمق الثقافة العربية - نموذجنا النثرى الجديد، نموذج المقالة، إلى أن يصبح نموذجا فكريا نشطاً، بما اقتبسوا له من أفكار الغربيين فى السياسة والأخلاق والاجتماع»(١).

كذلك أدى ظهور المسرح إلى رقى النثر وتطوره، فمنذ أنشأ الخديوى إسماعيل دار الأوبرا، بدأ هذا الفن ينمو، وبدأت الجماهير المصرية تقبل عليه، ولا ننسى هنا أثر يعقوب صنوع ومارون النقاش اللذين قدما على المسرح كثيراً من المسرحيات المترجمة والممصرة والمؤلفة. ويظل المسرح معتمداً على الترجمة والتمصير إلى أن تظهر أول

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر: دكتور شوقى ضيف، ص ١٨٥.

محاولة جادة لفرح أنطون سنة ١٩١٣ وهى مسرحية «مصر الجديدة ومصر القديمة». ثم يظهر محمد تيمور ويسهم فى تطوير المسرحية إلى أن تأخذ شكلها الفنى الجاد عند توفيق الحكيم بعد ذلك.

انتشار التعليم أدى بدوره إلى رقى النثر، فمنذ أواخر القرن الماضى بدأ المثقفون والمفكرون ينادون بضرورة نشر التعليم بين أبناء الأمة باعتباره الوسيلة الفعالة لمحاربة الاستعمار والتخلف السياسى والثقافى والاقتصادى. وقد كافح كثيرون، منهم مصطفى كامل ولطفى السيد وقاسم أمين حتى افتتحت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨، وكان افتتاحها يعنى بداية حياة تعليمية راقية فى مصر. كذلك لا ننسى قبلا أن محمد عبده جاهد كثيرا من أجل تطوير دراسات الأزهر فى مجال علوم اللغة العربية وخاصة الأدب والبلاغة ، وقد نجح فى هذه المحاولة بعض الشئ. كما أن على مبارك أنشأ كذلك «دار العلوم ١٨٩٢»، فكانت أسبق من الأزهر فى تطوير العلوم العربية، كما أنشأ دار الكتب المصرية التى جمعت كثيراً من كتب التراث العربى والأجنبى. وهنا لا ينسى أن الطهطاوى منذ عاد من باريس وهو ينادى بنشر التراث العربى القديم، وقد ظل هذا الاتجاه سائراً – وإن كان بضعف فى بداية الأمر – حتى أسهم فى نشر كثير من كتب العربية وآدابها، كما وضعت نواة مجمع لغوى قبيل الحرب العالمية الأولى لتساير اللغة موكب الحضارة، وأخيراً أنشئ مجمع فؤاد الأول للغة العربية سنة ١٩٣٤، وأبرز أن من أهم أهدافه المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها.

كل هذا – بإيجاز – أدى إلى رقى النثر، حتى استطاع أن يسهم فى تطوير فنون الأدب الحديث، وهذا التطور الذى أصاب النثر كان على يد طائفة من المفكرين والأدباء أمثال : رفاعة الطهطاوى – على مبارك – عبد الله فكرى – توفيق البكرى – محمد المويلحى – فتحى زغلول – محمد عبده – قاسم أمين – مصطفى كامل – لطفى السيد – مصطفى لطفى المنفلوطى . والمنفلوطى بالذات من رواد التجديد فى الأدب العربى، فقد كان شاعراً ولكن ليس هذا بمهم الآن، بل الأهم هو أنه يعتبر أستاذاً حقيقياً لرواد القصة والنثر العربى الحديث بصفة عامة.

وقد جعل النثر ينجو من الإسفاف، لأنه جعل موضوعات الشعر وهى الحب الرومانسى وما حوله من مواقف عاطفية يعبر عنها بنثر حديث، يقارب لغة الشعر، ويؤثر فى الناس، فكان له أكبر الأثر فى كسب قراء الشعر إلى ناحية النثر.

وفد عبد هؤلاء الطريق أمام المدرسة الحديثة فى النثر العربى، التى ضمت هيكل وطه حسين والعقاد والمازنى، ولذا نجد هذه المدرسة تعاصر قضية تطوير الأسلوب وتعيش فيها، ونجد هيكل يتكلم كثيراً عن قضية اللغة والإحساس بمشكلة الأسلوب وهو فى باريس ، حيث كان يكتب يومياته ويقرأ صحف الوطن، فعانى من المشكلة على الرغم من ثقافته العربية، لأنه وجد الأسلوب المتقعر يسد الطريق بين الكاتب والقارئ، فكتب مقالة بعنوان «لغتنا» جاء فيها: «إذا كان هذا الموضوع أول ما استلفت نظرى مما يوجد فى بلدنا من النقص الكبير، فلا أستطيع أن أفتخر إلى اليوم بأنى وصلت فيه إلى نتيجة أخيرة، أحسست وأنا فى مصر ومحاط بأفكار أهل بلدنا الرجعية بأكبر الأسف بأن نكون - نحن المصريين - لا لغة لنا نعبر بها عن إحساس طبقات الأمة المخلتفة تعبيراً حقيقياً، ولذلك فليس لنا أدب لغة إلا بقدر ما فى أشعار ملتون اللاتينية من أدب الإنجليز. وهنا تضاعف عندى ذلك الإحساس اليوم ويريد أن يخرج إلى الوجود، فهل من الممكن إظهاره أمام العالم، وهل فى ذلك مصلحة للغة أم لا ؟ ثم أليس أوجب من ذلك الجهاد لخلق لغة لنا مما عندنا أم نظل رجعيين إلى الأبد، يكتب الكاتب منا ويتحرى فى كلامه أن يكون على ما وصفه امرؤ القيس أو على ما جاء به القرآن الكريم، وكأنما اللهجات باقية وقوى اللغات فى الكلمات المفردة لا تتغير، حتى ساق ذلك التعالى والتعصب المذموم إلى نتيجة سيئة هى لازمة عنه لزوماً مطلقاً، ذلك هو التقعر فى البحث عن الكلمات من أجل التعبير عن المعنى الذى فى نفس الكاتب بغير ما ألفته شفتاه ولا أسماع من سيقرؤه.. استلفت نظرى من ذلك فى جريدة الليلة كلمة «لفافة» ثم بعدها بين قوسين (سيجارة) ، ويعلم اللّه مافى الكلمة الأولى «لفافة» من الثقل فى التعبير وما توروده على النفس من المعنى المطلوب. والضعيف يسقط أمام القوى دائماً، وليس فى الجهاد فى الرفع من شأنه إلا إضاعة الوقت سدى وفى مالا ينفع، والخير كل الخير فى عدم الجهاد لإضعاف القوى، فإنه الصالح للبقاء وهو الذى سيبقى رغم كل شئ» (١).

أحس هيكل إذاً مشكلة غرابة الألفاظ فى بدء حياته الأدبية، وبدأ يفكر فى علاجها، ونلمس معاناته من وطأتها فى رواية «زينب» التى كتبها هو وفى باريس ، فنجد السرد فيها بلغة فصحى، والحوار أقرب إلى العامية، وسرُّ هذا الاضطراب سيجب البحث عنه

(١) يوميات باريس المخطوطة - يومية ٢١ يناير سنة ١٩١٠.

عند دراسة الرواية . والذى يهمنا أن نؤكـده أن هيكل ذكر فى مقالته السابقـة رأياً يعتبر خلاصة للمشكلة وهو أن البقاء دائماً للأصلح، وأن الحياة هى التى تحدد نوع اللغة التى تلائم عـصرها. هكذا ظل هيكل ومن سـبقـه ومن شاطره فـى ميدان تحـديث الأدب، يعملون حتى حلت مشكلة الأسلوب، وجاءوا بأسلوب جـديد ليس فيه تقعر أو زخرف وليس فيه عامية أو سوقيـة، وإنما هو أسلوب سهل يجمع بين دقة المعنى وسهولة اللفظ ويهتم بالمعـانى لا بالألفاظ على نحو مـا وجدوا عند أدباء العرب الذين أعجـبوا بهم. وهذه المدرسة الرومـانسية الرائدة التى ينتـمى إليها هيكل لم تـسهم فى تذليل الأسلوب اللغوى فحسب، بل أرسـتْ كثيرًا من مفاهيم الأنواع الأدبية، بل هى كـما يقول هيكل التى خلقت الثورة الأدبية حينما ثارت فى بداية القرن العـشرين وبلورت الثورة السياسية فى ثورة سنة ١٩١٩.

فى هذا الوقت أيضا كـانت هنا ثورات أخرى متـشابكة: منها الثـورة الأدبية، التى كانت تبـحث للأدب العربى الحديـث فى مصر عن شـخصيـة مسـتقلة متمـيزة الطابع والأسلوب فى كل فنون الكلمة المنطوقة، واستطاعت هذه المـدرسة أيضاً أن تنتصر على أصحاب الفكر القديم، لا فى الأسلوب اللغـوى وحده بل فى المضمون الأدبى كذلك، وأنشأت فنوناً مستحدثة مثل القصة والرواية والمسـرحية فى الشعر والنثر، كما أخرجت المقالة الصحفية والأدبية فى شتى أشكالها وموضوعاتها.

وينطوى الموقف الأدبى إذْ ذاك على صـراع دائر بين الثقـافة العربيـة والغربيـة، وقد تمخض هذا الصراع - حين تـصالح أنصار الثـقافتين - عن مـدرسة أدبية مـجددة ذات شقين **أولهما**: مدرسة الجريدة التى أسسها لطفى السيد وبرز من أعضائها هيكل ومنصور فهمى وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ، وقد تأثروا جميعاً بالثقافة الفرنسية.

الشق الثانى: كونه العقاد والمازنى وشكرى، الذين تأثروا بالثقافة الإنجليزية .

وهذه المدرسـة بشقـيهـا لم تسع فى تجديدها إلـى قطع صلتهـا بالقديم كليـة، وإنما حاولت كمـدرسة المعتدلين فى الشـام أن توفق بينه وبين الحديث، بأن تخلق فى الأدب والحياة مذهبـاً وسطا تتصل جذوره بالماضى، وتتطلع فروعه إلى أضواء المدنيـة والثقافة الحديثة.

ونرى إجماعاً تاماً من نقاد الأدب ومؤرخيه على أن هيكل شارك بقدر كبير فى ثورة الأدب سواء من ناحية الشكل أو المضمون. وكما بدأ حياته فى ظل الأدب ختمها كذلك فى ظله - حين قدم رواية «هكذا خلقت» سنة ١٩٥٦ - ورغم تعدد نواحى نشاطه السياسى والصحفي والفكرى والقانونى والأدبى فقد ظل فى دنيا الأدب علماً ثابتاً. ويعد الأدب مجال نشاطه الأول والأثير.

obeikandl.com

vU ˙ ΦH˙

دور التكوين

فى أواخر القرن التاسع عشر - ومصر تضطرب بالتيارات السياسية والاجتماعية والأدبية - ولد فى العشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٨٨ محمد حسين هيكل بقرية كفر غنام مركز السنبلاوين التابعة لمحافظة الدقهلية، وبين أحضان هذه القرية ذات الزرع النضير، حيث طبيعة مصر السهلة وأرضها دائمة الخضرة، كانت تعيش أسرة هيكل. وكان أبوه - كما يذكر الدكتور حسين النجار - «سيد قومه وعشيرته وأحد أفراد هذه الطبقة المصرية التى أخذت تسود الريف المصرى، وترث ما كان للطبقة التركية من ثراء ونفوذ، يعززهما جاه العشيرة وعصبية الأسر الريفية الكبيرة»(١).

ونستطيع بشئ من التمثل والسماع أن ندرك أن والد هيكل عمدة كفر غنام، كان على صورة قريبة مما رسمها هيكل فى «زينب» عن السيد محمود والد حامد بطل الرواية، ومما يذكره عنه «أنه صاحب ضياع كثيرة ورب عائلة طويلة عريضة.. وباعتباره أكبر إخوته الكثيرين كان قد جمع من كده وبمعونة والده ثروة غير قليلة، وأصبح هو وارث اسم العائلة وطبعا الوصى على إخوته القصر، وقد كان من أطيب الناس قلبا وأصفاهم سريرة، وأحبهم لإخوته وأحناهم على الصغار منهم»، وإذا كان هذا الوالد قد أنجب من أكثر من واحدة فإنه لم ينجب إلا من سيدة واحدة أولاداً كثيرين من البنين والبنات وكان أكبرهم محمد. « وقد عنى السيد بهم جميعاً وأرسل للتعليم كل من تحتمل سنه ذلك. أما من جهة التربية فقد كان أقرب إلى تركهم لنفوسهم. ولم يكن هو نفسه يدري سبب ذلك، ولا يمكننا أن نعلل هذا الترك من جانبه بسبب مفهوم. الرجل رجل طيب كغيره، وكان من المعقول جداً أن يضع أبناءه تحت مراقبة ضيقة كما هى عادة أمثاله، أو على الأقل أن يجعلهم فى حضوره مثال الصمت والسكون كمقتضيات الأب المصرى. صحيح أنه ظاهر الجد إلى أقصى الحدود ساعة حضورهم، ولكنه لم يكن من الرهبوت بالمبلغ الذى عليه أمثاله. ولهذا السبب من جهة، ولأنه من الأعيان الأغنياء المصريين من جهة أخرى، لم نقدر على القول بأن تركه الحرية لأولاده نتيجة نظرية فى التربية رآها.. وحين بلغ حامد (محمد) الخامسة من عمره كان طفلا كثير

(١) من مقالة بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» للدكتور النجار، ص ٥ بتصرف.

obeikandi.com

الدلال كثير البكاء موضع الإعزاز من جميع من فى الدار، وبالرغم من هذه السن كنت كثيراً ما تراه محمولا على أكتاف النساء أو على أعناق الرجال. يضاف إلى هذا أن الوالد كان متفرغا له جاعلا إياه شغله متخذا منه ألعوبة يقلب فيها كما يشاء، يسر بها أحيانا فيغدق عليها من رضاه ومن نفسه، ويلاطف ذلك الطفل الذى يحبه من كل قلبه والذى يحس به جزءاً من نفسه، ويغضب أخرى فيضربه من غير رحمة لولا أن تتدخل جدته وتؤنب ابنها على عمله»(١)

ولسنا نحرص على التأكيد على أن هذه الصورة مطابقة تماماً للواقع، ولكنها بلا شك فيها كثير من أبعاد الصورة الحقيقية. ويمكن أن تكون وثيقة صادقة تعكس صورة قريبة لنشأة هيكل وأسرته. وإذا كنا نستنتج منها بعض أشياء عن طفولة هيكل المبكرة، فيمكن أيضاً أن نستنتج منها أشياء أخرى عن والده، الذى كان يتبوأ بحكم مركزه القيادى فى القرية مكانة سامية عند أسرته وفى قريته، بل حتى عند أعيان المركز ورجال الحكومة، لأن العمد فى ذلك العهد كانوا همزة الوصل بين شعب الريف وما يربطه بالحكومة وما يتصل بها من مصالح وشئون. وهذا المنصب القيادى للوالد - يعززه ما كان يتمتع به من حب واحترام ومكانة - أتاح للابن البكر مكانة لم تتح لكثير من الأبناء فى ذلك العهد، الذى كان يؤمن بأن الشرف والعزة والسيادة يمكن أن تورث.

قلنا إن هيكل كان الابن الأكبر لعمدة القرية، فكانت ظروف عيشه هينة ناعمة، وأتيحت له فرص التعليم بأقصى ما تتاح لشباب ذلك الزمان. ولما شب الفتى عن الطوق بكر به أبوه إلى كتاب القرية - كتاب الشيخ إبراهيم جاد - حيث حفظ جزءاً من القرآن الكريم لا يمكن القطع بكميته، لأنه لم يذكر ذلك صراحة أو ضمنا فى مذاكراته أو يومياته.

ومن ذكريات الطفولة فى الكتاب، يتحدث هيكل عن نفسه قائلا (سنة ١٩١٥) :

«وإن أنس لا أنسى يوم العلقة المليحة، أذكرها اليوم وقد مضت عليها سنون فتعرونى هزة الخوف، كنا إذا ذاك يوم السوق وكان من عادتى أن أحضر لسيدنا نصف بريزة من أبى كل سوق. فلما أصبحنا ذلك اليوم، وأردت مقابلة والدى، علمت أنه نائم، فألححت وبكيت وصحت وصرخت حتى استيقظ لشدة ما أحدثت من الجلبة،

---

(١) رواية زينب بتصرف، ص ٢١ وما بعدها.

فخرج يسأل عن الأمر، فلما علمه غضب منى وأمسك بأذنى وضربنى كفا وطردنى ولم يعطنى حتى ولا قرش السوق. فذهبت إلى الكتاب بعد إذ كفكفت أمى دمعى وأعطتنى قطعة من السكر لتسكتنى. ولما وصلت نظر إلى سيدنا نظرة الأمل. لكنما خيب كل ظنونه أنى لم أضع يدى فى جيبى. فتعلل وسأل عن سبب تأخرى. ولما أجبته استشاط غضباً، لأنه كان ناويا - كما علمت فيما بعد - أن يشترى بردعة لحمارته من السوق.

وأنذرنى إن لم أحفظ لوحى قبل الإفطار أورانى شغلى. وفعلاً لم أحفظ لضيق الوقت، فنادى بعلج من أولاد المكتب فدنا إلى وقرص بيديه رجلى فوق كتفه، وأمسك سيدنا بعضًا من جريد، وقام على أطراف أظافره ونزل ضرباً»[١].

هذه الصورة التى رسمها هيكل لحياته فى الكتاب، لم يكررها بالنسبة لمراحل حياته الأخرى، لأنه فيما يبدو كان شحيحاً فى الحديث عن نفسه بسبب ما فطر عليه من حياء وخجل.

وما لبث هيكل أن ترك الكتَّاب إلى المدرسة الإبتدائية - مدرسة الجمالية - وحصل علي شهادتها سنة ١٩٠١ وهو فى الثالثة عشرة من عمره. ثم واصل فى القاهرة إتمام دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية، وعاش مع عم له من علماء الأزهر هو **الشيخ صالح سالم هيكل**[٢]، ولعله قد لفت نظر ابن أخيه إلى قراءة بعض كتب اللغة وآدابها. وكان الفتى إذا ما جاءت العطلة الصيفية عاد إلى قريته وأهله، وقريب مما كان يحدث له فى القرية فى أثناء العطلة ما ذكره فى رواية زينب.

«كنت ترى الكثيرين من التلاميذ يقضون أيام مسامحتهم السنوية فى الغيطان. وكثيراً ما يبيتون هناك ليالى الحصاد مسرورين بهواء الليل وغناء العاملات، أو إلى جانب (تابوت)[٣] يزن من غير انقطاع. لكن حامد أكبرهم لم يكن بهذه الطباع، بل كان شديد الميل إلى البقاء بالبلد وفى دار الضيافة مع الناس، والسبب فى ذلك راجع لتربيته الأولى، حين كان والده متفرغاً له جاعلا إياه شغله متخذاً منه ألعوبة يقلب فيها كيفما شاء..»[٤].

هكذا كان محمد فى قريته - ربما بسبب نشأته المدللة التى تقوم على كثير من الحب

(١) فى أوقات الفراغ ص ٣٣٣.

(٢) هذا العم لا نعرف عنه شيئاً بالنسبة لمجال الأدب.. لكنه كان صاحب مكتبة كبيرة أهداها إلى المكتبة العامة لمحافظة الدقهلية بالمنصورة.

(٣) تابوت: ساقية.

(٤) رواية زينب، ص ٢٣.

والرعاية - لا يشترك كثيراً فى أعـمال الحقل، وإن ذهب إلى هناك - فكما تذكر السيدة إحسان هيكل شـقيقته فى حـديث لها مع الباحث - فإنه كان يكتـفى بتأمل ما يراه من مناظر الطبيعة المصـرية الجميلة، أو يصحب كتاباً من الكتب المفـضلة لديه، يقرأ فيه فى مكان هادئ.

كذلك كان فى العطـلة يقوم بالتدريس فى مدرسة القـرية التي كانت شبه مـقصورة على أبناء العائلة وبناتها. وقد أصدر مجلة «الفضيلة» إبان دراسته الثانوية، وكانت تطبع بالبالوظة وتوزع على أهل القـرية، ولعل فى هذا إرهاصاً لهواية الصحـافة التى ملكت عليه لبه فيما بعد.

ومرت السنون وهيكل دائمـاً موضع الحب من أهله الذين سروا بنجابتـه وتفوقه فى الدراسة. وبقى دائـماً على عاداته من المكـث بين جدران البيت فى حين كـان أعمـامه وإخوته يجوبون المزارع. وكانت القرية تتعمق نفس هيكل منذ طفولته، وكانت مناظرها وتقاليد أهلها تمتزج بها امتزاجاً عمـيقاً انعكس فى كثير من حقول تراثه الأدبى. كذلك كان الدين وما يتصل به من عادات ومـثل يحدث نفس الامتزاج، ويصدر عنه فى تراثه ما يعكس هذا الامتزاج، فـحامد فى زينب يحس بعد العتاب الرقيق «قـشعريرة العظمة والترفع، ولقد خيل إليـه كأن الماضى الطويل المملوء بالعقائد القوميـة والعادات يتجمع كله ليسقط بحمله على رأسه».

ومن فقرة أخرى فى زينب نلمس صلته بالدين وبالعقائد والتقاليد الريفية حين يذكر: «انتبه حامد مبكراً وصلى العيد. ثم بعد أن قابل الناس ممن جاءوا يهنئونه ما بين راجٍ له عمرا طويلا، وعجائز القوم ضاحكات يردن لـه عروسا فى حضنه العام القابل، قام مع جماعة من أصـحابه يطوف البلد الصغير من أدناه إلى أقصـاه يشارك أهله فى عيدهم. وكلما مر بقوم حيـاهم وصافحوه جميعاً، وتبادلوا مـعاً الكلمات المعتادة أو نزل عندهم وشرب قهوة، ثم تركهم إلى غيرهم» (١).

نستنبط من ذلك أن معـرفة هيكل كاتب القصة بهذا تدل على مـا نريد الوصول إليه من أن القرية وما يتصل بها من مـثل وعقائد وعادات وتقاليد كانت تتعمق نفـسه تعمقاً لم يكن يستطيع أن يتخلص منه وهو يكتب أدبـه سواء فى داخل الوطن أم خارجه على

---

(١) رواية زينب، ص ٤١ و ٤٣.

ما سيأتى بالتفصيل. وفى ظل هذه القرية نستطيع أن نذهب فى شئ من التأكيد إلى أن الحب قد داعب فؤاده بطريقة خيالية، تعكسها رومانسيته الواضحة عن الحب فى رواية زينب. ومما لاشك فيه - أيضا- أن ما حدث له من تجارب عاطفية لم ينته فيما يبدو نهاية سعيدة. ولعل مما يعلل ذلك أن الإحساس بمشكلات الحب والزواج والعلاقة بين الرجل والمرأة قد سيطرت عليه كثيراً. وندرك من رواياته وأغلب أقاصيصه إحساسه فوق العادى بهذه المشكلة العاطفية، بل إنه يرد إلى هذه المشكلة - فى ثورة الأدب - سر فتور وضعف فن القصة فى مصر.

* * *

وأما فيما يتصل بإخوة هيكل: فلا نلمسُ لهم أثراً فى تراثه عدا شقيقته السيدة إحسان، التي أهدى إليها رواية زينب، والتى كان يكاتبها كثيراً فى أثناء غيابه عن القرية.

ولا نلمس أيضاً - فيما عدا رواية زينب - ما يعكس صلته بأقرانه الريفيين وغيرهم، على الرغم من أنه - على ما يستنتج - لم يكن متكبرا أو مغرورا أو انطوائياً.

ونستشف من «زينب» أن حياته التعليمية كانت حياة جادة، فإذا ما جاء الخريف وجاءت معه آخر أيام العطلة السنوية سافر مع إخوته إلى القاهرة، حيث يتلقون تعليمهم المدرسى، وكان إذا ما بدأت السنة الدراسية دخل مع الأيام فى عمله وشغل به عن كل ما سواه. ويبدو أن اهتماماته لم تكن تتعدى ما يتصل بالدراسة وقراءة بعض كتب الأدب. أما السياسة وما يتصل بها من صحافة فهذا شئ لم يلتفت إليه إلا بعد أن أنهى المرحلة الثانوية.

يسير الشاب فى حياته الأليفة حتى يحصل على البكالوريا سنة ١٩٠٥ ، ويزمع أن يسافر إلى إنجلترا لدراسة الهندسة. ولكن حدث أن توفى جده لوالده وحضر لطفى السيد للعزاء لصلة النسب التي تربط بين الأسرتين، ويعرض عليه أمر الشاب، فيختار له دراسة الحقوق، ويمنيه بإكمال دراسته فى الخارج إن أراد. وفى السابعة عشرة من عمره يدخل محمد مدرسة كلية الحقوق، ويذكر فى مذكراته أنه أتمَّ دراسته الثانوية وليس له فى أمور السياسة رأى مكون، على أنه كان شديد الميل إلى دراسة الأدب العربى قديمه وحديثه بقدر ما يسمح إدراكه. فلما انتقل إلى دراسة الحقوق وجد نفسه

مضطراً إلى أن يلم بالتيارات السياسية المتصارعة التى انضم إليها كثير من زملائه، بينما وقف هو على الحياد يريد أن يتبين وجه الحق فيها.

اقترنت هذه الحيرة السياسية فى نفسه.. «بحيرة أخرى اجتماعية، فقد اطلعت على كتاب «تحرير المرأة» وعلى ما كتب طعناً عليه. ثم اطلعت على تفنيد قاسم حجج خصومه فى كتاب «المرأة الجديدة»، واقتنعت بأن الرجل على حق، وعجبت لموقف الذين ناوءوه ووقفوا فى وجهه. **ولم تكن هذه الحيرة الاجتماعية أقل أثرا فى نفسى من الحيرة السياسية،** فقد بدأت أشعر أن متابعة الجماهير هى الطريق السهل، ولكنها تؤدى أكثر الأمر إلى الخطأ، ولهذا شعرت بعزلة جعلت موقفى من زملائى الطلبة فى هذه المشاكل موقف صمت ليس فيه معارضة لهم، وليس فيه كذلك انخراط فى صفوفهم ومتابعة لزعمائهم»(١)

هكذا كان هيكل منذ حداثة سنه يقف حيال الأمور موقف المفكر المتأمل قبل أن ينتهى فيها إلى رأى ، ثم بدأ يميل إلى الكتابة فى الصحف اعتزازا بقدرته على ذلك.

وكان فى هذه المقالات يكتب متأثراً بطريقة محمد عبده وأسلوبه فى الدعوة إلى الإصلاح. لكن نفسه لم تطاوعه على إرسالها الى الصحف مخافة ألا تنشر لعدم تقديرها. وفى سنة ١٩٠٧ تألف حزب الأمة، فأنهى حيرته السياسية وآمن بمبادئه وعرفه أستاذه لطفى السيد بمدير الجريدة أحمد عبد القادر، فشجعه على الكتابة ودعاه كثيرا إلى مكتبه، وعن طريق «الجريدة» تثقف ثقافة واسعة. وكانتْ ثقافته حينئذ عربية خالصة تقريبا. ولكن لطفى السيد أستاذه الروحى وجه نظره نحو الثقافة الإنجليزية ووجوب التزود منها بقسط، فعدل عن قراءة الأدب العربى إلى كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يحدثه فيها أستاذه سياسية أو أدبية. «ثم إن لطفى السيد لم يكتف بأن ينصب نفسه أستاذا ومعلماً لناشئة الجيل من أمثالى الذين كانوا يترددون عليه، بل أتاح لنا فرصة الاستماع لكبار الأساتذة، إذ كان يدعوهم يحاضروننا فى دار الجريدة فى موضوعات مختلفة. كان أحمد عبد اللطيف وحسن صبرى ومحمود أبو النصر وغيرهم من كبار المحامين يحضرون إلى الجريدة، يلقون محاضرات ما كان أجلها فائدة فى توسيع آفاقنا الفكرية. وكان لطفى يقدمنى إلى هؤلاء جميعاً ويذكر لهم شيئاً مما أكتبه فى الجريدة مقروناً بتقدير كنت أغتبط به. وكان هؤلاء الأساتذة الكبار لا يأبون علينا أن

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٢٧.

يرشدونا إلى كتب نقرؤها ما كان أعظمها أثراً فى نفوسنا»(١)

هكذا تؤثر صحيفة «الجريدة» فى ثقافة هيكل وتربطه بالتيارات السياسية والفكرية والأدبية.. وهذا كله بفضل أستاذه لطفى السيد.

هيكل فى باريس

يحصل هيكل على ليسانس الحقوق بعد أن اجتاز مرحلة الدراسة دون تعثر، ويتوسم الوالد فيه ملامح مستقبل مشرق، فيقيم فى القرية ليلة ساهرة يودع فيها الشاب المسافر صباح السابع من يوليو ١٩٠٩ إلى باريس. وطوال الطريق يشتاق إلى الريف الذى ودعه وإلى الرفاق والأصدقاء. وتعصف به الذكرى فلا ينسى تلك الدمعة التى انحدرت من عينى أمه، وهى تدعو له بسلامة العودة.

وينزل هيكل باريس ولما يتقن الفرنسية بعد، فيضيق صدره لعدم انطلاق لسانه فيذكر: «ما أسأم عدم معرفة اللغة تضطر الإنسان لطلب المساعدة من غيره». وبدأ فى تعلم الفرنسية فبدت له صعبة، فعاوده الإحساس بالضيق. «كنت أقرأ كتب العرب الرائعة وكتب المتقدمين والمتأخرين، وهنا نكصت على عقبىَّ أحفظ قواعد الأجرومية وتصاريف الأفعال». وكاد ييأس فشكا إلى أستاذه لطفى وذكر له ميله إلى ترك باريس إلى لندن ليكمل دراسته حيث يجيد الإنجليزية. ولكن الأستاذ أزال شكوكه وطلب منه التريث وعدم تحويل اتجاهاته بهذه السهولة والسرعة.

كذلك يذكر فى يوميات فى باريس المخطوطة أنه التقى هناك بالشيخ مصطفى عبد الرازق وبهى الدين بركات وعبد الحميد سعيد وحسن صبرى وغيرهم، حيث كانوا يتناقشون فيما يجد للوطن من أمور. وهنا تطرأ له فكرة لم تخطر لأحد من قبل فعرضها على أصدقائه فقابلوها بالاستحسان، ومن ثم كونوا **جمعية للمصريين بباريس** يستقبلون فيها الوافد ويرشدونه إلى ما يريد، ويناقشون أحوالهم وأحوال وطنهم . وكان **هيكل سكرتيراً لهذه الجمعية**. ويسمع عن الجمعية الإسلامية فيتردد عليها ويتصل فيها بالدكتور منصور فهمى، ثم صار أحد أعضائها وخطبائها. وفى باريس أيضاً كان يقرأ جريدة «العروة الوثقى» التى سبق أن أصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده. ولم تنقطع صلته بالصحافة المصرية فكانت «الجريدة» تصل إليه، لكنه كان لا يكتب فيها إلا

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٤.

نادرا. هكذا كان هيكل النازح يعيش مع وطنه بفكره وقلبه مفكراً فى شئونه وأحداثه، لذلك نعجب حين نجده فى يومياته يناقش بعض مشاكل المجتمع وقضايا الأدب على ضوء ما قرأ وشهد.

كان هيكل قد التحق بمدرسة «العلوم الاجتماعية العالية»، وأخذ فيها دراسات كثيرة متنوعة عن الاجتماع وعلومه وتلقى محاضرات فى الأدب الفرنسى واللاتينى فحصل لنفسه ثقافة واسعة. وهنا أمر جوهرى يتصل بهذه الثقافة وهى أنها **أحدثت فى نفسه مرحلة شك لم يتصل بالاجتماع ومثله وشئونه فحسب،** بل تعداه إلى بعض أمور العقيدة والكتب المقدسة، وحول هذا الشك يناقش فى يومياته بعض مسائل الدين والسياسة والحكم حسب مفهوماته الجديدة التى حصلها. وتمر الأيام فيرى فى مدينة النور ألوانا من الحياة تفسح أمام النظر آفاق التفكير، وتزيد المرء إيمانا بحرية العقيدة والرأى.

ولم تكن طباعه تميل إلى اللهو مع فرصه الميسرة التى كانت تغصُّ بها المدينة، ولذا كانت فترات الترويح عن النفس يقضيها فى الذهاب إلى معارض الآثار أو المسرح ليشاهد مسرحية يعجب بها أو بكاتبها، ثم يعود ليسطر خواطره وأوصافه لما شاهد ونقده لما رأى .

على الرغم من كل هذا النشاط فى الدراسة والحياة كان لا يزايله الحنين إلى الوطن، بل يضطره إلى أن يسدل ستائر حجرته لتحجب عن عينه المعالم الخارجية كما حجبت عن قلبه وفكره. . ليكتب فى أبريل سنة ١٩١٠ رواية زينب التى يذكر فى مقدمتها. . «فلقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها، وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر مما لا تقع عينى هناك على مثله، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة، لا تخلو من لوعة. . »

وقبل أن يبدأ فى كتابة زينب كان قد بدأ قبلاً منذ أغسطس سنة ١٩٠٩ فى كتابه يومياته التى لا تزال مخطوطة، وعنها يذكر: «أما ذلك الكتاب الذى فى عزمى أن أكتب فهو مجموعة ما يجول بخاطرى اليوم فى مسائل معينة أبحثها وأدقق فيها ما استطعت، ولا أريد أن أنتهى منه فى شهر أو شهور، بل أجله ممدود معى طول مدة إقامتى بباريس. فإن سمح الوقت والحالة الفكرية بإتمامه فذلك مارجوت وأملى أن يخرج فى ثوب حسن».

اللافت فى هذه المذكرات المخطوطة بل فى كثير من تراث هيكل **أنه لا يكاد يحدثنا عن مشاكله الخاصة وأموره الذاتية**، فهذه بلاشك كانت السبيل لمعرفة نفسيته وخصائصها الذاتية، ولكن يبدو أن حياءه كان يمنعه - دائما - من الحديث عن نفسه. ومرة واحدة يذكر أنه التقى بمن تدعى مس بياتركس حين نزلت أياماً بالفندق الذى كان يقيم فيه، واتصل بها وقضى معها ساعات سعيدة.. «وأجدر هذه السويعات بالذكر سويعة آخر أيامها معنا. وتكلمنى عن مصر وشأنها، وتريد منى أن أكتب تاريخ أمتى فى قالب روائى، ثم تطلب ضاحكة أن أقدم باسمها رواية من هذه الروايات. نعم بياتركس من أجل هذا الإهداء الذى تطلبين سأكتب تاريخ مصر مهما كلفنى، وليكون ذكرى لأسبوعين من أيام الحياة».

هذه الحداثة قد تعبر عن تعطشه إلى الحب الذى لم يكن يسعى إليه هيكل، حتى لو ساقته إليه المقادير. ولعل هذه الحداثة أيضاً قد تعلل بعض ما كتبه عن تاريخنا القومى فيما بعد.

«وانتهت سنة ١٩١١ الدراسية وآن لى أن أختار موضوع رسالتى للدكتوراه، وقد رأيت أن يكون عن تشريع العمل والعمال فى مصر، ولكن بعد أن عدت إلى القاهرة، وجدت المراجع والمصادر فيه فقيرة».

فى هذا الصيف (١٩١١) حضر إلى القاهرة وكان يكتب المقالة الافتتاحية «للجريدة»، التى نالت إعجاب كثير من الناس على ما سيأتى تفصيله فى الباب الأخير. «بعد ذلك عدت إلى باريس واخترت موضوعاً لرسالتى «دين مصر العام» فوافق عليه أستاذى لارنو، ومن يومئذ جعلت أقرأ كل ما كتب عن مصر الحديثة من عهد محمد على، وأعيد النظر فيما سبقت لى قراءته. قرأت ما كتب بالإنجليزية والفرنسية، وقرأت الوثائق الرسمية فى الكتاب الأصفر الفرنسى، والكتاب الأزرق الإنجليزى، وراجعت بعض الكتب العربية كتاريخ الجبرتى وتاريخ ابن إياس. وراجعت الوثائق الرسمية المصرية والتركية فى قاموس الإدارة وبعض سجلاته. ولم أترك كتاباً استطعت الاستفادة منه لموضوع رسالتى إلا قرأته» (١)

كان لهذه القراءات المتعددة وما تحتاج إليه من تمحيص لوجهة نظر الكاتب أثر كبير

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص٥٢.

فى اتجاه تفكيره فى سياسة بلاده فيما بعد. وجعلته يزداد إحاطة بالعوامل التى أدت بها إلى وضع الاحتلال الذى هى فيه، وزادته تصميماً على أن يعمل مدافعاً عن حق بلاده فى الحرية والاستقلال، ودفعته فى خطوات سريعة إلى مسرح السياسة، فتألق نجمه كسياسى له مكانته العظيمة فى نفوس الساسة والشعب.

وبعد أن أتم هيكل رسالته وحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى، عاد إلى مصر فى أوائل أغسطس سنة ١٩١٢، يحمل ثلاثة كتب قيمة: أولها **رواية زينب** التى سدت فراغاً هائلا فى دنيا الأدب. وثانيها **يوميات فى باريس** التى لم تزل إلى اليوم مخطوطة. ثم **رسالة الدكتوراه** التى طبعت فيما بعد بالفرنسية. ويحاول ابنه الأستاذ أحمد الآن نشر الثانية وترجمة الثالثة إلى العربية. واللافت للنظر أن هذه الكتب الثلاثة فيها كتابان أدبيان مما يدل على ميله الأدبى المبكر.

هذه المرحلة التى تمثل حوالى أربعة وعشرين عاما من حياة هيكل، وقد رأى الباحث أن يسميها «مرحلة التكوين»، لأنها تمثل الدور الذى حاول فيه هيكل أن يكون نفسه ثقافيا وعلميا، وأن يتعمق الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية، بل كل ما كان يدور فى وطنه من أحداث وآراء، كما أنه بدأ فى هذا الطور يصعد سلم الصحافة والأدب فى طريقه إلى مرحلة أخرى من الحياة فيها إشراقة لحياة أرحب. وسنجد ضوء هذه المرحلة وما يليها يشع فى تراثه الذى سنتناوله بالدراسة والبحث فى الأبواب التالية.

* * *

ثقافة هيكل

من الأهمية أن نعرف منابع ثقافة الأديب، والروافد التى غذتها، والأساتذة الذين عنهم أخذ وبهم اقتدى، لنعرف لون هذه الثقافة ومكوناتها لنتمثل أثرها فى أدبه وتراثه الفكرى. يشير بروكلمان فى كتابه «تاريخ الأدب العربى» إلى أن هيكل تلميذ للثقافة الأوربية بعد ما تعلم فنون الثقافة العربية[١]. وهذه إشارة ذكية ولكن ينقصها عدم التفصيل، ذلك أن هيكل بحق متنوع الثقافة متعدد المشارب فيها. ويمكن أن نقسمها إلى تيارين كبيرين:

الأول: تيار عربى.

الثانى: تيار غربى.

(١) Carl Brockelman: Geschite der Arabischen Litterature. T. 3. P. 202.

أولا: التيار العربى

عاش هيكل منذ صغره فى القاهرة، ومعنى هذا أنه كان على علم بمعظم ما يدور بها من انتفاضات سياسية وثورات فكرية وإصلاحية. لكن العلم -عن وعى- لم يلتفت إليه هيكل بما يستحق من التفات إلا بعد أن أنهى المرحلة الثانوية، ويذكر أنه أنهى تلك المرحلة وليس له فى أمور السياسة رأى معين، هذا بينما كان «شديد الميل لدراسة الأدب العربى والاطلاع على قديمه وحديثه بقدر ما يسمح إدراكه»(١).

ويذكر أيضا: «كنت منصرفا إلى قراءة آمالى القالى وأغانى الأصفهانى وأمثال الميدانى والبيان والتبيين للجاحظ وقراءة المؤلفات العصرية جميعا(٢)».

كذلك يذكر فى ثورة الأدب أن مطالعاته العربية تناولت من كتب الأدب العربى القديم الشئ الكثير(٣).

ونجده فى معرض حديثه عن القصة عند العرب يشير إلى قصة «حى بن يقظان» التى تمثل التفكير الدينى الحر فى عصر ابن طفيل، ويذكر «ألف ليلة وليلة» التى جمعت قصصا رائعة الخيال، كما يتحدث عن قصة عنترة والزير سالم وسيف بن ذى يزن ورأس الغول وما إليها(٤).

وهذا يدل على أن له معرفة وثيقة بالأدب العربى الفصيح والشعبى، ونجده يذكر أيضا أنه كان يحضر كثيرا من الندوات التى كان يعقدها لطفى السيد فى الجريدة، حتى أصبح حضور الندوات عنده هواية مفضلة فيذكر: «حضرت يوما مجلسا ضم جماعة من كبراء مصر، بينهم فحول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين فى اللغة»(٥). ثم يذكر: «كنت أتحدث إلى جماعة من أصحابى وبينهم الشاعران الكبيران حافظ ومطران فى لجنة الاحتفال بتكريم شوقى، وتناول حديثنا الشعر(٦)».

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٢.

(٣) ثورة الأدب: د. هيكل، ص ٣٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٥٥.

هذه نصوص عدة تبين صلة هيكل الوثيقة بالثقافة العربية منذ الصغر، وتذكر شقيقته إحسان أنه منذ صباه كان مغرما بالقراءة حتى عند ذهابه إلى حقل الأسرة. وهذا يدل على أن الميل الأدبى قد ظهر عنده مبكرا قبل الاتجاه السياسى، وفى هذا دليل على النزوع التلقائى -كما يقول علماء النفس - نحو الأدب، حتى لنجده فى المرحلة الثانوية شديد الميل للاطلاع على ما يلقاه من كتب الأدب العربى قديمه وحديثه. وقد أورد البحث أنه كان يقطن مع عم له من علماء الأزهر. ومن المنطقى أن يكون قد حبب إليه القراءة فى كتب الأدب القديمة. ويستمر هذا الاتصال بالثقافة العربية بقوة حين يكتب فى «الجريدة» ليوفر لكتاباته ما يضمن لها الرقى الأدبى. ثم يذهب إلى باريس فلا ينسى الدراسة الأدبية.

ثم يعود إلى مصر وقد اكتمل نموه الأدبى فيشارك فى ثورة الأدب كما يشارك فى ثورة السياسة، ولذا نجد صلاته الوثيقة بكثير من شعراء العصر وكتابه، فقد صادق أمير الشعراء، بل يقال إنه أثر فى بعض قصائد شعره، ولذا أخرجت «السياسة الأسبوعية» عددا كاملا عنه حين بويع بإمارة الشعر، كما أنه يذكر صداقته لمطران وحافظ. ويرثيه الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد أحر رثاء مما يدل على الصداقة القوية بينهم. كذلك كانت له علاقة وطيدة بالبشرى وإبراهيم المازنى ومنصور فهمى والحكيم وأسرة عبد الرازق ومحمد عبد الله عنان وغيرهم الكثير من أعلام الأدب والفكر، مما يدل على أن ميله الأدبى سار فى اطراد نحو التقدم، لأن هيكل سار فى محيط التيارات الأدبية والفكرية التى كان يموج بها المجتمع المصرى، لذلك فإنه يعد بحق رائداً من رواد النهضة الأدبية الحديثة. ويرى الباحث أيضا أنه كانت لهيكل دراية كبيرة بتذوق الشعر ونقده، وتبدو كثرة محفوظاته منه خاصة فى مذكراته السياسية، كما يعقد فصلا عن الشعر فى ثورة الأدب. وقد عمل جادا على نشر ديوان البارودى وكتب له ولديوان شوقى مقدمتين رائعتين، تبين ذوقه الأدبى والنقدى فى مجال الشعر، كما كتب ترجمة لإسماعيل صبرى فى تراجمه المصرية. وأخيرا ونحن فى معرض الحديث عن ثقافته العربية لا ننسى القرآن الكريم الذى حفظ شطرا منه فى بدء حياته واعترف بتأثره ببلاغته.

وهذه الثقافة العربية الواسعة كانت سببا فى اختياره عضوا فى مجمع اللغة العربية (١٩٤٠)، ومشاركته الواعية فى بعض أعماله وندواته.

Obeikandi.com

مما سبق تتضح ثقافة هيكل العربية الواسعة، ونريد أن نتحدث عن **أهم الأساتذة العرب الذين تتلمذ عليهم فكريا**، يستوى فى هذه التلمذة الاتصال المباشر أو غيره، وأول هؤلاء الأساتذة هو **أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وهو يعد الأب الروحى للمدرسة الحديثة فى الفكر بصفة عامة ولهيكل بصفة خاصة**. وقد غير اتجاهه أكثر من مرة كما سبق ذكره، وهيكل ينص على ذلك صراحة: «كنت أشعر بعطف من جانبه على، لعل مرجعه إلى ما كان بينه وبين والدى من صداقة، جعلت والدى يقف فى صفه منذ اللحظة التى أظهر فيها الجريدة، ولذلك كان يقدمنى لأصدقائه قائلا: محمد ابن أخى. . . »(١).

ولعل أهم آثاره فى تكوين هيكل -ونحن نتحدث عن الثقافة- أن جعله يعدل عن قراءة الأدب العربى إلى كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يطرقها أستاذه وغيره بدار صحيفة «الجريدة»، سواء أكانت سياسية أم أدبية. وكأنى بدار «الجريدة» قد أصبحت جامعة حرة للثقافة والفكر، وكان عميدها لطفى يحاول أن يعمق ثقافة أولئك النشء لإدراك سابق واع بأنهم سوف يقودون الحركة الفكرية والأدبية والسياسية. وبالفعل نجد أن أهم رواد النهضة فى السياسة أو الأدب أو الفكر. . كلهم من تلاميذ لطفى. وفى هذا يقول عنه عبد العزيز البشرى: «لم يكن لطفى فى سنيه هاتيك صحفيا فحسب، بل كان أستاذا يشرع فى العلم والفلسفة وفنون الاجتماع، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء. فما راقك اليوم من علم فلان، وما أعجبك من عقل فلان، وما راعك من أدب فلان، فأولئك فى الحق أكثرهم من صنيعة لطفى السيد فى تلك الأيام. . . »(٢).

ويظل الأستاذ بجوار تلميذه يشد أزره عند الحيرة، ويفتح له أبواب المستقبل حين يتلمس طريقا إلى ذلك، فيترك له كتابة المقالات الافتتاحية فى «الجريدة» سنة ١٩١١، ثم يرشحه سنة ١٩٢٢ لرياسة تحرير صحيفة «السياسة»، فيخط له بذلك مستقبلا مرموقا فى الصحافة. ونجد أستاذيته لهيكل بالذات فيها عاطفة الأبوة وإعجاب الأستاذ بتلميذه، ولذلك يقول الأستاذ بعد وفاة تلميذه هيكل: «لقد كان هيكل ابنى البكر، وليست الخسارة فيه شخصية أو عائلية أو إقليمية، بل خسارة عالمية»(٣).

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٣٢.

(٢) مقالة بعنوان «فى المرآة» جريدة السياسة الأسبوعية - العدد ١٥. وقد أعيد نشرها فى كتاب بنفس الاسم.

(٣) الدكتور محمد حسين هيكل، ص ٣١٢.

كذلك أثر **الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده** فى هيكل أثرا بالغا، ففى السابعة عشرة من عمر هيكل تقريبا وحوالى ١٩٠٥، بدأ هيكل يعى التصورات التى تحدث فى بلده، وفى هذه الأثناء كانت مدرسة جمال الدين تنشر دعوتها الإصلاحية الشاملة، وبرز من رجالها الأول الإمام الذى كان يهدف إلى إصلاح شامل وتطوير مستحدث، يحرر الفكر الإسلامى من قيد التقليد، كما أنه أحدث تطورا فى سلك القضاء وبرامج الدراسة فى الأزهر وفى منصب الإفتاء. و«رسالة التوحيد» تبين كثيرا من المسائل التى تعرض لها الإمام وأسهم فيها برأى جرئ، لذا فقد كان الإمام كثير الكتابة فى الصحف داعيا إلى التفكير الحر وفتح باب الاجتهاد فى المسائل الدينية، ناعيا على الناس الجمود الذى قضى على الأمم الإسلامية بالتأخر. فيعجب هيكل الشاب بدعوته وبدعوة أستاذه جمال الدين الأفغانى فيقرأ كتاب الإمام: الإسلام والنصرانية، وكتاب أستاذه: الرد على الدهريين، ويحاول هيكل فى تلك الفترة أن يكتب مقالات صحفية. ونعجب إذ نجده يعترف فى هذه المحاولات بتأثره بأسلوب الإمام وطريقته فى الكتابة، ذلك الأسلوب الذى يهدف إلى الإصلاح.. وهذا ما التزم به هيكل حينئذ، ولذلك نجد أول مقال ينشر له عن تحرير المرأة. ويسافر هيكل إلى باريس فيقرأ جريدة «العروة الوثقى» التى سبق أن أصدرها الإمام محمد عبده مع جمال الدين الأفغانى.. فى أثناء إقامتهما فى باريس.

ويعترف هيكل أيضا أنه كان لقراءة هذه الصحيفة أبلغ الأثر فى نفسه، فهيكل إذ يعترف بتأثره بطريقة الشيخ محمد وأسلوبه الإصلاحى وطريقته فى الكتابة التى كان لها أبلغ الأثر فى نفسه. لكن نقرأ كتاب الدكتور آدمز فنجده يذكر: «تأثر كثير من الكتاب المعاصرين بالشيخ محمد عبده، وأول ما يبدو هنا من الحقائق التى لا تقبل المناقشة هو أن الشيخ توفى سنة ١٩٠٥، حينما كان أكثر هؤلاء الكتاب فى سن الشباب وأوائل عهدهم بالدرس والتحصيل، فلم يكن من الميسور أن تنشأ بينهم وبين الشيخ صلات شخصية طويلة العهد، ولا أن يكون أثره المباشر قد ذهب إلى غور بعيد...» ثم يذكر فى مقدمة هؤلاء الذين تأثروا به هيكل ويقول: «وقد لاحظنا أن صلة هيكل بالجريدة تدل على ميل إلى الآراء الجديدة التى كان يذيعها لطفى السيد وشيعته وكانت تتصل بالأدب والوطنية أكثر من اتصالها بالدين. وقد ظل هيكل يواصل العطف على هذه الآراء فى جريدة «السفور» التى خلفت «الجريدة». ولم يستمد هيكل آراءه من تعليم

Obeikandl.com

الشيخ مباشرة كما يتصل فى صاحب المنار محمد رشيد رضا. غير أنه ليس بعيدا كل البعد عن العطف على بعض وجوه هذه الحركة وبخاصة الناحية التى عنى بها قاسم أمين الذى يعجب به هيكل أيما إعجاب(١)».

هكذا ينفى آدمز التأثير المباشر بين الشيخ وهيكل، وحجته أنه توفى وهيكل فى صدر شبابه. لكن الباحث يرى أمام النص الذى يعترف فيه هيكل بأنه كان «يكتب متأثرا بطريقة الشيخ وأسلوبه» ثم: ... «وأذكر أنه كان لكثير من مقالات الشيخ فى العروة الوثقى مع أستاذه أبلغ الأثر فى نفسى(٢)».

أمام هذا النص الذى تمسك به هيكل إلى سنة ١٩٤٩ حين بدأ فى كتابة مذكراته السياسية، فإنه يدل أبلغ دلالة على مدى تأثر هيكل بالإمام واستيعابه لكثير من آرائه الإصلاحية. ولا ينفى التأثر إذن عدم وجود صلات شخصية، فالآثار الفكرية تؤثر سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، بل إنه فى الحالة غير المباشرة يكون أوقع وأدل، لأنه تأثير نشأ نتيجة اقتناع فكرى، إذ إن العلاقات الشخصية قد تجبر على التأثير أو التقدير، أما إذا انعدمت الناحية الشخصية فمعنى هذا أن التأثير قد أتى نتيجة تقدير للمؤثر وآثاره الفكرية. وهذا هو ما حدث بين هيكل والإمام الذى يتفق معه فى الثقافة العربية والفرنسية التى تشربها الشيخ فحدت بآرائه التقدمية إلى غاية من التقدم والعمق والرغبة فى التطوير.

كذلك فإن إعجاب هيكل **بقاسم أمين** واضح، وتأثره بدعوته قوى، فهو يذكر أنه اطلع على كتابه «تحرير المرأة» فى أثناء دراسته للحقوق وعلى ما كتب طعنا عليه، واطلع على تفنيد قاسم لحجج خصومه فى كتابه «المرأة الجديدة» فاقتنع بأن الرجل على حق، وتعجب لموقف الذين ناوءوه. وهذا الإعجاب يتضح فى كثرة ما كتبه هيكل عن قاسم أمين من مقالات «فى أوقات الفراغ»، ثم «تراجم مصرية وغربية». ويبدأ هذه المقالات بقوله: «لهذا رأيت أن أبحث من جوانب حياة قاسم أمين حياته ككاتب ومفكر اجتماعى بحثا تحليليا، حتى أظهر صلة رجل قام بحركة فكرية كبيرة فى مصر(٣)».

الواقع أن ما كتبه هيكل عن قاسم أمين من خير ما كتب عنه، لأنه كتب بعقلية

---

(١) الإسلام والتجديد فى مصر، ص ٢٤٤.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ص ٢٩.

(٣) فى أوقات الفراغ، ص ١٠٢.

الباحث وعاطفة المعجب بأستاذ قام بحركة فكرية واسعة، وإعجابه يتصل بكل ما أثر عنه من مجهودات فكرية سيما دعوته إلى تحرير المرأة، يؤكد هذا أن حفيد قاسم أمين يذكر فى بداية الطبعة الثانية لتحرير المرأة (١٩٤١): «ولقد كان لتقدير معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف العمومية أكبر الأثر فى اتجاه فكرى لإعادة طبعه، إذ قررت الوزارة فرضه على من يرغب فى الدخول فى مسابقة الأدب العربى[١]».

ويؤمن هيكل مثل أستاذه قاسم بحرية المرأة إيمانا يقرب من حد التشبث، لا باعتباره ضرورة اجتماعية فحسب، بل ينظر إليه نظرة الفنان المرهف فيذكر «ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة، لأنها مصدر الوحى فى الفنون الجميلة، ثم هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا، لأن عيونها تقع عليها، وهى تلهم الرجال هذا الجمال، لأنها تحب كل جميل[٢]».

كما نراه معجبا بالدعوة التى اشتغل بها قاسم منذ سنة ١٩٠٦ لإنشاء جامعة مصرية مع صديقه سعد زغلول، كذلك ينبغى أن نذكر أنه كانت لقاسم فى تجديد اللغة والأدب بعض آراء تقدمية، ولم يكن جزعه على الأدب بأقل من نفوره من جمود اللغة وعجزها عن التعبير الدقيق عن المعانى، فنعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على تكرار أفكار الغير التى حفظوها. وكم أسف على الجمود الذى يجعلك «إذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك، تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول، ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب فنونه[٣]».

هكذا نرى الإعجاب بقاسم شاملا صادرا عن عاطفة وهوى، ونجد النص من هيكل ـ صراحة وضمنا ـ يعكس الإعجاب لا بقاسم كمفكر فحسب، بل بشخصيته العامة كقانونى وقاض بل كرجل أيضا. وهنا تجد نفس القضية وهى عدم الاتصال المباشر، فهيكل يذكر: «لم تتح لى معرفة قاسم على قرب عهدنا به، وكل ما كنت أعرفه عنه مظاهره فى الحياة ككاتب وكقاض. على أن هذه المظاهر كفت لتحل الرجل من نفسى

(١) تحرير المرأة: قاسم أمين (من مقدمة الطبعة الثانية).

(٢) تراجم مصرية وغربية، ص ١٦٠.

(٣) تراجم مصرية وغربية، ص ١٦٥.

مكانا جمع بين الإجلال والمحبة. فلما وافته منيته سنة ١٩٠٨ شيعته إلى مقر وفاته وفى القلب لوعة حزن وأسى وحسرة(١)».

ننتهى من هذا إلى أنه على الرغم من عدم الاتصال المباشر بين هيكل والشيخ محمد وقاسم فإنهما قد أثرا فى ثقافته واتجاهاته الفكرية تأثيرا قويا، وإن كان يختلف من حيث الدرجة، فتأثر هيكل بقاسم أقوى وأوضح لأن دعوته كانت تتصل بمثل عامة للمجتمع وحاجاته الفكرية، فى حين كانت دعوة الشيخ تجد خير مريديها بين أنصار الثقافة العربية الخالصة، لأن أبرز جهوده فى نطاق الدين والدراسة الأزهرية ومحاولة تطوير النظرة إليها.

هؤلاء تأثر هيكل بآرائهم السياسية والفكرية والأدبية والاجتماعية والاصلاحية، ولا يستطيع الباحث القطع بأكثر من هذا. فعندنا مثلا **الدكتور طه حسين** الذى كان زميلا لهيكل فى درب الكفاح، لكن نقده لأسلوب هيكل اللغوى حسنه وجوده. والدكتور طه يذكر فى هذا الموضوع (اللغة) مخاطبا صديقه: «أنت تذكر ما كان بينك وبينى من جدال متصل فى هذا الموضوع (اللغة)، فقد كنت أتهمك بقلة البضاعة فى اللغة العربية، وكنت تجيبنى بأنى أزهرى، وكان أستاذنا لطفى يسخر منى ومنك فى رفق وحنان. وقد مضت أيام وأعوام ومازلت أنا أزهريا كما كنت. أما أنت فقد أتقنت اللغة العربية إتقانا ورضتها حتى ذللت لك، فأنت تستطيع أن تقول إنى أزهرى، وأنا لا أستطيع أن أتهمك بالضعف فى اللغة العربية. ولكن لكل شئ حدا. فما رأيك فى أنك قد أتقنت اللغة العربية حتى لقد تسرف فى هذا الإتقان، وتصطنع من الألفاظ والأساليب ما يصح أن تعاب به، لأنه أدنى إلى التقعر منه إلى شئ آخر، صدقنى فأنت أزهرى فى بعض الأحيان، وكم لى عليك من فضل أيها الصديق، مازلت أعيب لغتك حتى أصبحت شيخا قحا(٢)».

فزمالة طه حسين لهيكل قد أدت إلى هذه النتيجة التى يقررها صديقه فى حين كان الدكتور طه يستوحى من هيكل بعض آرائه ومثله الفنية فى النقد. فهل يمكن القول بأن الصديقين قد أثرا فى طريقة الكتابة والتفكير فى بعضهما البعض، كما أثرا فى ثقافة

(١) فى أوقات الفراغ، ص ١٢٤.

(٢) السياسة الأسبوعية - العدد الأول.

الجمهور العام؟ الواقع أن هذه تأثيرات عامة لا يتصل الأمر فيها بتلمذة أو أستاذية، وإن كانت تمثل فى الواقع تصارعا بين ثقافتين إحداهما لغوية عربية والأخرى فكرية غربية. وقد أدى تزاوج الثقافتين إلى تأثيرات لا تنسى فى كل من الأديبين، بحيث نكون فى حل من اللوم إذا ما قطعنا بتأثير كل منهما فى الآخر.

* * *

ثانيا: الثقافة الغربية

إن تأثر هيكل بالثقافة الغربية أمر لاشك فيه كما يتضح من آثاره ومما نقلناه عن بروكلمان. وهذه القضية واضحة فى الثقافة الفرنسية -على ما سنفصل بعد- ولكن القضية بالنسبة للثقافة الإنجليزية أمر يحتاج إلى دليل قبل أن نثبت أو ننفى.

وهيكل يعترف فى مذكراته منذ وقت مبكر (حوالى سنة ١٩٠٧): «وكان من أثر أحاديثه (لطفى) أننى عدلت عما كنت ماضيا فيه من الاكتفاء بقراءة الأدب العربى إلى قراءة كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يحدثنى فيها، فانتقلت إلى قراءة الحرية لجون ستيوارت مل، والعدل لهربرت سبنسر، والأبطال والثورة الفرنسية لكارليل. هذا إلى كتب فى الأدب الإنجليزى، أفسحت أمامى آفاقا لم يكن لى من قبل بها عهد(١)».

ولا ننسى أن المستعمر حينذاك كان يحاول صبغ التعليم بلغته وثقافته ليعزز الاحتلال السياسى بغزو ثقافى. كما يؤكد إتقانه للإنجليزية فى صدر شبابه أنه فكر فى تحويل بعثته إلى إنجلترا كما سبق، وحين يبحث هيكل فى أثناء إعداد موضوع رسالته للدكتوراه ينص: «قرأت ما كتب بالإنجليزية خاصة الكتاب الأزرق(٢)». ونتصفح الرسالة فنجد فيها إشارات متعددة إلى ما كتبه كرومر وبلنت وملنر وكلفن وكولونيل جاردن وسيمون كى وغيرهم(٣).

ونعجب إذ نجده فى يوميات باريس يذكر أنه قرأ بعض الكتب الإنجليزية، وإن لم ينص بوضوح على أنه قرأها من خلال الإنجليزية أو مترجمة إلى الفرنسية.

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٢.

(٣) انظر هوامش رسالة الدكتوراه «دين مصر العام» فى طبعتها الفرنسية.

فصلة هيكل بالآثار الفكرية الإنجليزية قوية، وتستمر هذه الصلة لتظهر فى بعض المراجع الإنجليزية التى يذكرها فى سلسلة كتبه الإسلامية[1]. كما نجده فى ثورة الأدب يناقش رأى «جب» فى القصة العربية. وعلى الرغم من كل هذا لا نجد فى آثاره الفكرية والأدبية ما يدل على تأثره بالأدب الإنجليزى، بل إن ما كتبه عن شكسبير وشللى فى تراجمه الغربية (١٩٠٩)، لا يظهر فيه ما يوحى بقراءته لهما أو تأثره بآرائهما على الرغم من شمول الترجمتين، والمرجَّحُ -فى نظرنا- كما سيأتى أنه قرأهما وقرأ عنهما بالفرنسية.

ننتهى من كل هذا إلى أن هيكل كان قارئا للفكر الإنجليزى فحسب، ولكن ليس فى آثاره ما يثبت تأثره الواضح بالفكر أو الأدب الإنجليزى. وهذا يدل على أن **الثقافة الإنجليزية كانت من الروافد الجانبية التى** غذت ثقافته، وإن لم تؤثر فى اتجاهاته الأدبية والفكرية بوضوح.

أما بالنسبة للثقافة الفرنسية: التى استوحى منها كثيرا من اتجاهاته الفكرية، فإننا نعجب لذلك النازح الذى ما إن يستقر فى باريس سنة، حتى نجده يدون فى يومياته المخطوطة أسماء الكتب الفرنسية التى قرأها أو المنقولة إلى الفرنسية وتأثيرها فى نفسه، ويذكر أنه قرأ كتاب «الحكومة النيابية» لجون ستيوارت مل فى ترجمته الفرنسية، ويعجب بالكتاب وصاحبه «وأنه من الآراء التى أخذت بفكرى مما قرره مل فى كتابه: إنها هى الأمة التى تجعل الحكومة قوية مستقيمة إذا كانت هى قوية منتبهة لكل ما تأتيه الحكومة، كما أن ضعف الأمة يسقط الحكومة إلى الدرك الأسفل، وإنهم هم الأفراد الذين يعملون فيها هم الذين عليهم استقامتها، وليست النظامات الموضوعة لتفيد شيئا، إذا كان منفذوها فاسدى النفوس».

وبحكم دراساته القانونية والاجتماعية يمضى فى قراءة هذا النوع من الكتب الذى

---

(١) على الرغم من ظهور هذه الدراسات فى مرحلة متأخرة حوالى (١٩٣٥ - ١٩٤٥) نجده يستخدم فى «حياة محمد» ثمانية مراجع إنجليزية وخمسة فرنسية، وفى «الصديق أبو بكر» تسعة إنجليزية وستة فرنسية. فهل يمكن أن نفهم من هذا أن هيكل تأثر فى أسلوب تفكيره العلمى الذى استخدمه فى هذه الكتب بالفكر الإنجليزى؟ الواقع أنه لا يمكن إثبات هذه القضية، لأن أكثر قراءات هيكل كانت بالفرنسية، كما أن الفكر الفرنسى يعرف مثل هذا التفكير العلمى الذى استخدمه، كما أنه فى كل تأثره بالغرب كان يصدر عن الثقافة الفرنسية فى المقام الأول.. وإن كان هذا لا ينفى قدرا من التأثر العام بالثقافة الإنجليزية أيضا، لأنه كان يتقنها وهو فى مصر - قبل البعثة سنة ١٩٠٩.

يخدم تخصصه ويدور فى فلك النظم الاجتماعية والسياسية. ثم يقرأ كتبا أخرى مترجمة إلى الفرنسية -على أغلب الظن- من تأليف هوبز، ولوك، وتولستُوى الروسى الذى قرأ له رواية «البعث»، ثم نجده يميل إلى قراءة الأدب بعد أن يدرس فى الجامعة الأدب اللاتينى والفرنسى. ولا يكتفى بالقراءة بل يذكر أنه حفظ لفكتور هوجو قصيدة الفقراء. ويضيف أنه قرأ كتاب إرفج الأمريكى عن تاريخ سيدنا محمد، ورواية النبى الأبيض لهول كين، وكتاب الأبطال لكارليل الإنجليزى ويعجب به كثيرا، ثم يعلن بعد ذلك فى يوميات باريس إعجابه برواية أندروماك، وأنه قرأ بعض كتب إرنست رينان، وقرأ كثيرا لموليير وحضر عرض بعض رواياته على المسرح -هوايته المفضلة- لأنه كان يقضى وقت فراغه فى القراءة، فإذا ملها وأراد الترويح عن نفسه ذهب إلى المسارح الباريسية، ويعود بعدها لينقد التمثيل والتمثيليات. وهذا يدل على أنه حتى فى لهوه وسمره كان جادا وحريصا على تثقيف نفسه بعيدا عن إطار التخصص الأكاديمى المحدود.

وفى «ثورة الأدب» يتحدث أيضا عن فلوبير وقصته مدام بوفارى، وعن إميل زولا، وموباسان ونزعتهما القصصية، ثم عن بول بوجيه، وجول لمتر وغيرهم، مما يدل على معرفة سابقة بهم، كما أن ما كتبه عن فن القصص فى ثورة الأدب فيه استعراض واسع لمعرفته العميقة بالأدب الفرنسى وتطوره[١].

بعد هذه القراءات والمشاهدات فى باريس وبعد حوالى سنة ونصف سنة بدأ فى كتابة رواية «زينب».. فهل الحنين وحب الوطن وحده هو الذى أملاها - على ما يذكر؟

الواقع أن الحنين لاريْبَ فى وجوده، لكن لاشك أيضا أن لهذه القراءات والمشاهدات أثرا واضحا فى كتابة الرواية أيضا - كما سنوضح بعد.

هؤلاء جميعا ذكرهم هيكل فى كثير من كتاباته مما يدل على تمثل لإنتاجهم وإعجاب به. ولذا فمن الممكن أن نعتبرهم مؤثرين فى ثقافة هيكل الأدبية والفكرية.

لكن يبقى إلى جانب هذه الأسماء شخصيات أخرى استدل الباحث على تأثيرها فى هيكل من كتاباته عنهم، سواء فى كتب خاصة مثل **جان جاك روسو** -أو فى أجزاء من كتب- مثل فى أوقات الفراغ، وتراجم مصرية وغربية - وأول هؤلاء روسو، الذى أعجب به هيكل وبطريقة تفكيره وأسلوبه الرومانسى فى الأدب. وسوف يقف البحث

(١) انظر: ثورة الأدب، ص ٧٢ وما بعدها.

obeikandi.com

وقفة عند هذا الكتاب فى الباب الرابع.

أناتول فرانس (١٨٤٤ - ١٩٢٤)

كتب عنه هيكل عدة مقالات فى جريدة «السياسة» سنة ١٩٢٤، وجمعها فى كتاب «فى أوقات الفراغ» مما يؤكد الإعجاب المتزايد به. وهو يذكر عنه: «ليس أناتول كاتب فرنسا وحدها، وهو ليس كاتب هذا الجيل وحده. وإنما هو من كتاب العالم الذين تظل كتبهم فى كل الأجيال وفى كل الأمم[١]».

فإذا عرفنا أن هيكل عاصر هذا الكاتب وقرأ له كثيراً بشهادة السيدة حرمه -فى حوار لها مع الباحث، فإن ذلك يؤكد ما نذهب إليه من تأثره بذلك الكاتب الأدبى والصحفى الناقد والروائى الكبير صاحب رواية «تاييس» وغيرها.

هيبُوليت أدولف تين (١٨٢٨-١٨٩٣)

تأثر هيكل كثيراً بهذا الفيلسوف الأديب، ويروى فى مذكراته أنه ترجم له منذ وقت مبكر بحثًا عن البوذية. وفى مقالاته عن قاسم أمين وترجمته له يستخدم الأسس التى رسمها تين لدراسة الشخصية ووجوب أن ندرس الوسط المحيط بها باعتبارها ثمرة له. كذلك يجب دراسة كتب المفكر على اعتبار أنها آثار اجتماعية لا مجرد مظاهر فردية، وذلك المعنى هو ما أراده تين»[٢].

ويسرد هيكل ترجمة مستفيضة له فى تراجمه الغربية، ويتحدث عن آثاره فى التاريخ والأدب والفلسفة الواقعية، فإذا أدركنا أنه يذكر عن الأوروبيين الذين ترجم لهم: «وهؤلاء إنما ترجمتُ لهم لمناسبات خاصة، ولأنى أحببتهم منذ زمان طويل حبًا جمًا»[٣].

وهذا النص يدل على تأثره بتين وآرائه النقدية والفلسفية. بل يبدو أن ما كتبه هيكل عن بتهوفن فى تراجمه ليس إلا أثرًا من آثار قراءته لمقالة خلوة لتين من كتابه "Notes Sur Paris" . ولعل هذه المقالة أيضًا قد ألهمته حب بتهوفن وفنه. ويرى الباحث أيضًا أن ما كتبه هيكل أيضًا عن شكسبير وشلّلى هو أثر من قراءة كتاب تين «مذكرات عن

---

(١) فى أوقات الفراغ، ص ٣٧.

(٢) فى أوقت الفراغ، ص٩٧.

(٣) تراجم مصرية وغربية، ص٦.

نصًا واضح الدلالة على هذا: «ولست أدرى إذ أقول إن مذهبه أقرب إلى الدقة من كل مذهب، سـواء أأنا متأثر بتـقدير ذاتى أم بذكريات خـاصة، فقد قـرأتُ كتبـه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة (أى حوالى سنة ١٩١٧)، وتركت فى نفسى من الأثر ما لم تتركـه كتب أناتول فرانس «الحياة الأدبيـة»، وما لم تتركه كتب أسـتاذ النقد الكبير سـانت بيف نفسه. ولست أشك فى أن كثـيرين قد يتذوقون نقـد جول لمتر، أو فاجيه وبورجيه، أو بول سوداى، أكـثر من تذوقهم نقد تين. وربما كان حكمى أنا أيضًا يتغير لو أن الظروف التى أحاطت بقراءاتى تغيرت. لكنى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرضُ لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقـده ولو لنفسى ومن غير أى فكرة فى الكتابة عنه على الطريقة التى أحـبتها نفسى مـنذ قراءة كتب تين»[1]. ولعل فيما عـرضنا ما يثبت رأينا بتأثر هيكل بـ«تين» وكتبه وآرائه الفكرية المختلفة. . وطريقته فى النقد.

بيير لوتى (١٩٢٣)

من أسباب إعجاب هيكل بلوتى أنه «أحد كتـاب فرنسا وأحد محبى الإنسانية الذين امتازوا بالعطف على الشرق عامة ومصر خاصـة عطفًا خالصًا من كل شائبة. وله كتاب «موت أنس الوجود» الذى كتبه عن مـصر وأهداه إلى مصطفى كامل. ونجد كتب لوتى أشبه بالذكريات التى كـتبها صاحبها لنفـسه، فوصف فيها ما رأى وما سـمع وما أحسه كأنه يريد بهذه الذكريات أن يزيد من متاعـه بالحياة، وأن يجمع حوله فى كل لحظة من لحظات الحـاضـر صـورة ذلك الماضى، هذا بالإضـافـة إلى أن «لوتى» كـان مـغـرمًـا بالوصف»[2] . هكذا نجد هيكل يعتـرف بإعجابه بهذا الأديب إعجـابًا مرده إلى عطفه على الشرق وإحساسه بالغاية التى تربط الفن بالحياة.

هؤلاء أهم من تأثر بهم هيكل وقرأ لهم كثـيرًا، ولذا فإنه يعد بحق من الذين **تمثلوا الثقافـتين العربية والفـرنسية** عن وعى عميق، وكأن إنتاجـه الفكرى والأدبى نتيجة تأثره بهاتين الثقافتين. وسوف نلتـمس صدى هذا التأثير فى تراثه النقدى والأدبى والفكرى، الذى سيتعرض له البحث فى الأبواب القادمة بالتحليل والتفسير.

---

(١) تراجم مصرية وغربية، ص٢٤٨.

(٢) انظر المقالة التى كتبها الدكتور هيكل عن لوتى: فى أوقات الفراغ، ص ٨٦.

ولابد من وقفة قصيرة فى معرض الحديث عن الثقافة لنبين **ثقافته القانونية الاجتماعية الواسعة** التى كونهـا نتيجة دراساته العليـا فى القانون وعن طريق قراءته الخـاصة. وقد أورد البـحث بعض الكتب التى قـرأها سواء وهو طالب أو بحـكم كونه هاويًا للقـراءة والمتعة. ولكن الذى يحـتاج إلى تأكيد هو أن دراسة القانون والإعـداد للدفاع والمحاماة تفرض على الملم بها أن يكون أسلوبه فيه شىء من المحاجة والمجادلة وخاصة إذا تعرض لمناقشـة قضية فى أىّ مجـال. وقد أثرت هذه الثقافـة فى بعض أقاصيصـه وفى معظم مقالاته الأدبية والصحفية وفى دراساته التاريخية الإسلامية على ما سيأتى ذكره.

* * *

عقلية هيكل

بعد أن تحدثنا عن ثقافة هيكل وروافدها المتشعبة ينبغى أن نقف وقفة سريعة لنتحدث عن عقلـية هيكل، ذلك أن هيكل فـيما خلف مـن تراث وما شارك فـيه من أعـمال، يكشف عن شخـصية راجحـة العقل متـسقة التفكيـر. ولكى نتحدث عن هذه العـقلية الواعية المنظمـة لابد من أن نستعين ببعض حقائق علم النفس وتعـاريفه للذكاء على أنه القدرة على حـل المواقف والمشاكل بذكاء وفطنـة. وهنا سنجد أنفسنا مـضطرين إلى أن نسلك ما سنسلكه بعد عند الحديث عن نفسـيته- سنضطر إلى أن ننعم النظر فيما خلف هيكل من تراث لنكتشف إطار هذه العقلية.

إذا تصورنا مـجالات الثقـافة التى حصَّلهـا هيكل، فإنها تعكس -بلا شك- عـقلية جادة تستطيع أن تـهضم وأن تعى بسرعة ما تقـرؤه وما تبحثـه. وقد أوضح البحث من قبل كيف أن هيكل منذ أن وطأتْ أقدامه أرض باريس، كـان لا يكف عن تحصيل ثقافة واسعة، لا عن طريق ميدان الدراسة الأكاديميـة الذى انخرط فيه فحسب، بل عن طريق هواياته الأدبية أيضًـا. بل يظهر من يوميـاته التى كتبـها عن نفسـه فى باريس أنه مضى يحصل هذه الثـقافة أيضًـا عن طريق حضور الندوات ومـشاهدة التمـثيل والمسرحـيات والتمعـن فى مظاهر الحضارة الجديدة عليـه، التى بهرته بأمور جديدة، لم يشـهدها من قبل فى أثناء شبابه فى مصر.

ونلحظ من كتاباته عن نفسه موقفين، يعبران عـن عقليته المتزنة المفكرة ونفسه المعتزة بذاتها منذ الشباب المبكر، فهو يذكر فى مذكراته السياسية (جـ١ ص٢٥) أنه أتم دراسته

openkandi.com

الثانوية فى السابعة عشرة من عمره، وليس له فى أمور السياسة رأى محدد، فلما انتقل إلى مدرسة (كلية) الحقوق وجد نفسه مضطرًا إلى أن يحيط علمًا بالتيارات السياسية المعاصرة ليحدد موقفه إزاءها. . فماذا صنع؟

لقد هدته عقليته الواعية إلى أن يتبع الطريقة المثلى فى تكوين الرأى وتحديده، فعكف على مطالعة جريدتىْ اللواء والمؤيد، ليتابع عن كثبٍ هذه التيارات السياسية التى انضم إليها كثير من إخوانه، بينما بقى هو يحاول أن يتبين وجه الحق فيها. وطالتْ هذه الحيرة إلى أن شعر بعزلة، جعلت موقفه من زملائه موقف صمت ليس فيه معارضة لهم، وليس فيه كذلك انخراط فى صفوفهم ومتابعة لآراء زعمائهم. واستمرت هذه الحيرة سنتيْن كاملتين إلى أن تألف حزب الأمة، فآمن بمبادئه وانضم تحت لوائه.

من هنا وجدنا هيكل منذ صغره لا ينساق مع الجماهير بعواطفه،وإنما يفكر بعقله منذ شبابه المبكر فى الطريقة المثلى لتكوين الرأى. . بعد الدراسة والتفكير والاقتناع.

أما الموقف الثانى: الذى حدث فى هذه المدة وكشف عن نفسيته التى تنقاد للعقل ومنهجه فى التفكير، فقد بدأ يهوى وهو فى الثامنة عشرة من عمره الكتابة فى الصحف اعتزازًا من شبابه بالقدرة على ذلك. . . «فبدأتُ أكتب مقالات ثم أراجعها، لكن نفسى لم تكن تطاوعنى على أن أرسلها إلى الصحف مخافة ألا تقدرها قدرها الحق ولا تنشرها»(١).

هذا النزوع المبكر نحو التفكير المنظم وكبح جماح النفس، يعكس عقلية متسقة التفكير وشخصية معتزة بنفسها اعتزازًا يجعلها لا تسير فى ركاب العاطفة، وإنما خلف العقل والتفكير.

وصدى هذه العقلية التى تمتاز بقدرة فائقة على التنظيم الفكرى والتنسيق المعنوى لا يُحصى فى تراثه الفكرى، بل هى التى جعلت كثيرًا من حلقات حياته ودخائل نفسه تغيب حتى عن معظم المقربين إليه، وهى التى شكلت صعوبة جوهرية فى البحث عن سمات نفسيته -على ما سنوضح بعد.

كذلك فإن عقلية هيكل المنسقة تظهر فى إنتاجه الفكرى والأدبى متميزة على عاطفته الأدبية، تلك العقلية التى أبعدتْ إبعادًا كبيرًا كتبًا مثل «عشرة أيام فى السودان» -

(١) مذكرات فى السياسة، جـ ١ ص٢٩.

«ولدى»- «فى منزل الوحى» - أبعـدتها عن حيز التـرجمة لهـيكل فى فترة من فـترات حياته. كما نلحظ تميز هذه العقلية فى كتـبه الإسلامية التى كتبها عن الرسول وأبى بكر وعمـر وعثمان، إذ نجـد العقل والمنطق الفكرى فى هذه الكتب يغالب العـاطفة والذوق الأدبى. وعلى هذا وجدنا الكثير منها ينضوى تحت مجـال السير الغيرية -كما سندرس ذلك بالتفصيل فى الباب الرابع.

كذلك أثرت هذه العقلـية التى تحجب نفسهـا وعاطفتها فى كـثير من المواقف، ولا تسـمح لها بـأن تطفو على السـطح، وإنما تدعهـا غـائبة فى أعـمـاق الشعـور أو ربما اللاشعور. وقد أثرت هذه العقلية المنسقة على كـتاب ممتاز كتبه هيكل فى أيامه الأخيرة وهو كتاب «**مذكـرات فى السيـاسة المصـرية**». ونجده يذكر فى تقـديمه أن هذه المذكرات «تنشر حوادث شاركتُ فيها بنصيب فى أطوار السياسة المصرية وفق سنى وعملى والمكان الذى كنت أشغله بين أهلى ووطنى، وقد كـانت هذه الفترة فى حياة مصـر من الفترات التاريخية، إذ نهـضت البلاد خلالها تعمل لاستـقلالها وسيادتها وتقـدمها، ولذا يجدر بكل من شارك فى العمـل أثناءها أن يكتب عنها ما يكوِّن من بعد مـادةً للمؤرخ، تعينه على أن يرسم الصورة الصحيحة لهذا الطور من أطوار الوطن».

معنى هذا أن هيكل ينص على أن تلك المذكرات ستكون شركة بينه وبين وطنه، فهل استطاع أن يتمسك داخل الكتاب بالهدف الذى أعلنه؟ الواقع أن هذه الثنائية التى أعلنها هيكل أضرت بالكتاب من ناحيتين:

أما الناحية الأولى السياسية: فيعيب المذكرات فيها أنها لم تقصد إلى تأريخ حياة **مصر السياسية كاملة،** بقدر ما قصدتْ إلى تدوين ما شـارك فيه هيكل أو اتصل به من أعمال عامة وقـضايا وطنية وأعمال وظيـفية، أى أننا نفتقد فـيها الشمول لكل تيـارات العصر السياسية واتجاهاته الحزبية المختلفة.

وإذا ما قارنا هذه المذكـرات بما كتبه المؤرخ عبـد الرحمن الرافعى - الذى ظل طوال عمره مؤمنًا بمبـادئ الحزب الوطنى، الذى أسسه مصطفى كـامل- فى كتابه ذى الأجزاء الثلاثة وعنوانه «فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩»، فـإننا نجد أن الرافعى يتفق مع هيكل فى العناية بالناحية الحـزبية التى كان كل منهما يميل إليـها ويعتنقها، وإذا كـان الرافعى يمتاز على هيكل بأن نظرته للحوادث أشمل وأوسـع، فإن كتابة هيكل أميل إلى الحيـاد فيما تعرضت له من شرائح الحياة السياسية فى مصر.

أما الناحية الذاتية الأدبية فيعيبها أمران: الأول أن عقلية هيكل قد استطاعت، بل تمكنتْ بقوة أن تحجب أمور ذاته وما يتصل بهذه الذات من مواقف ومشاعر خاصة بها، أى إن ما يتصل بهيكل فى هذه المذكرات إنما هو قضايا عامة شارك فيها هيكل وتحرك فى مجالها أمام الناس، أما المجال الذى كان يتحرك فيه مع نفسه فهذا المجال لم يكد يطفو مطلقًا، لذلك لا يحدثنا حديثًا مفصلاً عن زواجه وزوجه أو عن علاقاته الخاصة بالرجال أو النساء.

الثانى: أن هيكل لم يستخدم حين كتب هذه المذكرات الخيال أو الإحساس الذاتى الذى أعلن أنه سيتمسك به. وإنما كتب هذه المذكرات بأسلوب تاريخى، يعتمد على الحقائق والمواقف العامة.

ولا شك أن عقلية هيكل هى السر فى اتجاه هذا الكتاب نحو التاريخ والسياسة، بينما كان ينبغى أن تكون هذه المذكرات ترجمة ذاتية لصاحبها، يحكى فيها ما شارك فى صنعه، وما عنَّ له من إحساسات ومشاعر. وعلى هذا فقد أصبحت هذه المذكرات وثيقة تاريخية عامة -رغم أسلوبه الأدبى فى الكتابة.

وسنلمس دليلاً آخر على عقلية هيكل فى الباب الأخير من هذه الرسالة، حين يتناول البحث والدراسة طريقة التصميم الفكرى للمقالة الأدبية عند هيكل.

نستطيع أيضًا أن نستشهد من علاقاته بالناس واحتكاكه بالسياسة والساسة أمثلة كثيرة تبين عقلية هذا المفكر الأديب، ومعظم هذه الحوادث مدوَّن فى مذكراته السياسية فلا داعى لذكرها، وليرجع إليها من يريد.

الذى نريد أن نؤكده هنا فى نهاية هذه اللمحة الخاطفة عن عقلية هيكل أن **هيكل المفكر لا يكاد يترك هيكل الأديب**، بل لقد جنى -كما لاحظنا -هيكل المفكر- أحيانًا - على هيكل الأديب، وأبعد منهج الفكر بمنطقيته وتسلسله الموضوعى بعض أعمال كانت أقرب إلى الأدب فى كثير من حلقات تراث هيكل -كما سيظهر ذلك فى أثناء تحليل مجمل أعماله.

على هذا لا نغالى حين نذهب إلى أن هيكل كان يمتاز بنبوغ عالى الدرجة، ساعده على تشرب ثقافة واسعة وإنتاج فكرى وخلق أدبى متعدد - سنتناوله بالدراسة والبحث فى الأبواب التالية.

* * *

نفسية هيكل وأثرها فى أدبه

أغرم هيكل منذ صغره بالثقافة سواء عن طريق القراءة أو بعض المجالس الأدبية التى كان يرتادها. ويبدو أن نفسه كانت تميل إلى الانطواء رغبة فى القراءة والتأمل وإدراكًا لأثر الأدب السامى فى النفوس. وحدث أن طلب منه الملك فاروق أن يشترك فى وزارة صدقى سنة ١٩٤٦ فأجابه «إننى عاهدت الله ونفسى ألا أكون وزيرًا أبدًا، وإنى لا أنقض عهدًا قطعته. ولعل إجابتى هذه وإن وافقتْ هوى الملك فى أمر تأليف الوزارة الجديدة لم تعجبه صيغتها، كما لم تعجبه كثير من إجابتى فى ظروف سابقة»(١).

فهذه النفسية العنيدة التى كان صاحبها يتسم بالحياء والتمسك بالرأى فى حاجة إلى استكشاف، لأن صاحبها لم يكد يذكر شيئًا عن نفسه أو عن أموره الخاصة، وأول ما يفاجئنا هو ذلك الشح فى الحديث عن النفس الذى يراه البعض عسيرًا، وعلى الرغم من ذلك الشح فإنه لا يعفى من نظر القضية، وان كان يزيدها صعوبة مما يضطرنا إلى الوقوف عند الأهم والأعم.

وأظهرُ سمات هذه النفس الاعتزاز بالذات والرأى اعتزازًا يقرب من حد العناد؛ فقد كان يرى أن الرأى يعبر عن كرامة صاحبة، وإذا ما تخلى المرء عن رأيه تخلى بذلك عن قدرٍ من كرامته. وإذا أردنا تتبع البواعث التى أدت إلى هذا لوجدناه يعود أولاً إلى نظام التربية التى نشأ عليها هيكل الابن الأكبر لسيد القرية وعمدتها، حيث «كان الوالد متفرغًا له جاعلاً إياه شغله، متخذًا منه ألعوبة يقلب فيها كما يشاء». فهذا التدليل من الوالد كان بلا ريب من عوامل هذا الاعتزاز. وحب الوالد انتقل بعد ذلك إلى الأسرة كلها، ثم إلى أهل القرية، حيث كان محمد حريصًا منذ صغره على أن يختلط بهم فى بيت والده، فنشأ بينه وبينهم تعارف سرعان ما أدى إلى تقدير له وإعجاب به. وقُبيل مغادرة مصر إلى فرنسا تجتمع القرية كلها لوداعه، وحين ينوى الحج سنة ١٩٣٤، على الرغم من بعد المسافة بينه وبين أهل القرية، يأتون إلى القاهرة متمنين له سلامة العودة، وحين يعود من الحجاز يُقابل بنفس الحفاوة، ويذكر أن «هذه هى المرة الثانية التى يلقانى فيها أهلى بمثل هذا الترحاب وهذا الحفاوة حين أوبتى وسفرى»(٢).

---

(١) مذكرات فى السياسة، حـ٢ ص٣٢٠.

(٢) فى منزل الوحى: دكتور هيكل، ص٦٢٦.

opeikandil.com

وهذا التقدير المنبعث عن حب له وإجلال لآرائه، جعله يحس بذاته مما ولَّد عنده اعتزازًا جعله وهو فى الثامنة عشرة من عمره يكتب مقالات فى الصحف اعتزازًا من شبابه بالقدرة على ذلك، «لكن نفس لم تطاوعه على أن يرسلها إلى الصحف مخافة ألا تقدره تقديرها الحق ولا تنشرها»(١)

هذا الاعتزاز بالنفس أيضًا جعله يتمسك بآرائه ويدافع عنها باقتناع وحماسة، تضطره أحيانًا إلى تحدى سعد زغلول حين شكاه إلى النيابة بحجة إثارة الرأى العام. ويعلن سعد رئيس الوزارة والحزب الوفدى يومئذ استعداده للتنازل عن القضية إذا ما جاء هيكل واعتذر له، لكن هيكل أبى أن يعتذر اعتزازًا لكرامته ولكرامة القضية الوطنية التى كان يدافع عنها.

يتصل بهذا الاعتزاز بالنفس والرأى -أيضًا- اعتزازه بحرية بلده وحماية دستورها طوال حياته. وتجىء حركة التبشير ويقرأ طعن المسيحيين على الإسلام الحنيف، فيحس بالطعنة الموجهة إلى دينه الكريم، فيصدر اعتزازًا بهذا الدين الحنيف كتبه الإسلامية التى سيأتى الحديث عنها.

كما يتصل بذلك الاعتزاز أنه نشر رواية زينب لأول مرة دون أن يسجل اسمه على الغلاف، وكنَّى عنه باسم «مصرى فلاح»، لأنه أراد أن يظهر «أن الفلاح المصرى يشعر فى أعماق نفسه بمكانته وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفلاحة شِعارًا له، يتقدم به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه»(٢).

كذلك كان **الحياء الشديد ظاهرة نفسية أخرى** ولازمة من لوازم هيكل الدالة على شخصيته العامة والأدبية فى الوقت ذاته. وقد ظهرت هذه السمة نتيجة النشأة الريفية بالإضافة إلى تربية فيها شىء من الترف والنعيم والخلق. ويعترف هيكل بأن الحياء سمة من سمات مزاجه وخلقه حين تردد فى أمر الذهاب إلى الحج، فيذكر: «لقد حاولتُ الاطمئنان إلى رأى فيه بسؤال أصحابى، على أنى لم أتجاوز السؤال إلى ما قد يُفهم منه عزمى على السفر، فلو أنهم فهموا منى ذلك العزم لأقدمت وسافرت غير عابىء بالنتائج، ذلك مزاجى ولعله مزاج من يغلب عليهم الحياء فى اتصالهم بالناس، يجازفون مخافة أن يقال خافوا!!»(٣)

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ١ ص٣٨.

(٢) قصة زينب. المقدمة، ص٩.

(٣) فى منزل الوحى، ص٣٥.

وقد أثر الحياء تأثيراً بالغًا فى أدب هيكل وفى سلوكه وتعامله مع الناس. فإذا أخذنا أدبه لوجدناه يهرب فى كل ما ترك من آثار فكرية وأدبية هروبًا ملحوظًا من الحديث عن نفسه أو ذكرياته الخاصة أو علاقاته بالناس. وفى مذكرات باريس قرأ الباحث حديثًا له عن سيدة وصفها حين كتب اليومية لأول مرة بأنها «بارعة الجمال»، ويُعيد هيكل مراجعة ما كتبه فيسطر خطًا سميكًا بالرصاص على هذا الوصف، وهنا ترتد إلى الذهن -على الرغم من كتابة هذه المذكرات فى باريس- صورة ذلك الريفى المتمسك بالحياء والخلق، والذى يرى من العيب الحديث عن مفاتن المرأة. فى هذا الخُلق الريفى يكمن السر فى أن آثاره الأدبية تخلو من الحديث عن مغامراته العاطفية أو ذكرياته الخاصة، فكتاب عشرة أيام فى السودان وولدى وفى منزل الوحى ومذكرات فى السياسة المصرية وكثير من المقالات كان من الممكن أن ترقى كلها إلى درجة الترجمة الذاتية لهيكل فى فترة زمنية محددة، أو قد تصل إلى أن تكون مذكرات خاصة فى فترة محددة، لكننا نقرأ هذه الكتب فإذا هى ذكريات وآراء عامة تعبّر عما يرى ويسمع. ولكن أين الكاتب وذكرياته الخاصة وأحاديث ذاته الدالة على نفسيته المتميزة عن غيرها؟ كل هذا منعه الحياء الشديد من الظهور فوق أو حتى وراء السطور.

وأثرُ هذا الحياء فى علاقاته لا يحصى، من ذلك على سبيل المثال ما حدث سنة ١٩٣٧ حين كان هيكل أحد نواب المعارضة فى طريقه إلى الجامعة لمقابلة لطفى السيد مديرها يومئذ: «فإذا بالطلبة مضربون فى البهو الفسيح أمام مكتب المدير يضجون، فلما رأونى أسرعوا إلى وحملونى على الأكتاف وهتفوا بسقوط الوزارة، وطلبوا إلى أن ألقى كلمة المعارضة فى الموقف. وأشهد لقد فوجئتُ بما رأيت من ذلك كله ولم أكنْ أتوقعه، ولم أزد حين طلبوا إلىَّ أن أتكلم على أن قلت لهم: لقد أدت المعارضة واجبها فعلى كل مصرى أن يؤدى واجبه. ولم أرد أن استغل الموقف وأن أطيل مخافة أن أحرج مدير الجامعة»[١].

هكذا نرى الحياء يمنع هيكل أن يستغل هذا الموقف ليحصل عن طريقه لحزبه وللمعارضة على نصر سياسى بين طلبة الجامعة خوفًا من أن يؤدى ذلك إلى إثارة عاصفة تحرج موقفه أمام أستاذه مدير الجامعة. ويذكر هيكل مرة -ولعلها فلتة- أنه حين كان فى أوروبا سنة ١٩٣٠ مع زوجه، يطلبان السلوى لفقد وحيدهما «أما فى باريس

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ١ ص٥١.

فكان الجرح لما يندمل وكـانت اللوعة ما زالتْ تبرح بالنفس فى سـاعات الوحدة، على أن مقتى **لظهور الناس على ضعفى جعلنى أخفيه وأجعله ضعف باريس وهمها بسبب تدهور الفرنك يومئذ فيها**»[١] .

هكذا كان الحياء يجعله فى كثيـر من الأحيان يستحى، إن لم يكن يخجل أو يبغض من اطلاع الناس على بعض سمات نفسه المرهفة وأحاسيسها الذاتية، لذا نجده لافى هذا الموقف وحده بل فـى كتاب «ولدى» كله يخلع مـا انتابه من أحـاسيس على مـا شاهد ورأى من مناظر طبيعية وبشرية.

وعلى هذا فينبغى أن نتـمثل ونحن نقرأ لهيكل أو عنه هذه النفـسية المعتزة بكرامـتها وآرائها اعـتزازًا يسـتند غالبًا إلى الحق، والتى كـانت مع ذلك لا تقبل الضـيم لنفسـها ولدينها ولوطنها ولعروبتـها، بل لكل ما يتصل بها، ومع ذلك فقد كانـت نفسه مرهفة شديدة الحياء خيرة بارة كريمة فى علاقاتهـا ومعاملاتها حتى مع من تخاصم أو تُعادى. وهذه السمات كلها ينبغى أن تتمثلها لهيكل دائمًا. وهذا الرأى إذ نقوله نعترف بأنه كان من الآراء التى آمن بها هيكل ودعا إليها منذ زمن بعـيد (١٩١٦) «وقد ظهر للمؤرخين أن **الأثر الأدبى ليس مجرد حركـة خيالية، ولا هو شهوة ساعة لرأس حـامية، ولكنه صورة من الأخلاق، وأثر من آثار الحال النفـسية التى تحيط به**. ومن الخطأ درس الأثر الأدبى على أنه عمل قائم بذاته فما آى الإيمـان بشىء لذاتها، وإنما هى أثر الذين وضعوها. وإنما يكون التاريخ الحق حين يبدأ المؤرخ يتعرف الرجل من خلال غيابات الزمن، ويميزه حيًا عاملاً ذا شهوات وعـوائد مسموع الصـوت منظور الوجه، ويرى إشاراته وملابسـه ويحيط به كاملاً، كأنما كان معه فى الطريق ولما يكد يدركه»[٢]

---

(١) ولدى: دكتور هيكل، ص٤٣.

(٢) فى أوقات الفراغ، ص٩٨.

الفصل الثالث

أديب فى غمرة الأحداث

توقف البحث بقدرٍ من التفصيل والتأنى فى العرض بالنسبة لمرحلة التكوين فى حياة هيكل، على أساس أن هذه المرحلة تعد من أخطر المراحل فى حياة الإنسان: أديبًا كان أم غير أديب. وبقى أن نُشير فى عُجالةٍ وإيجاز إلى المراحل التالية فى حياته بعد ذلك، حتى وفاته -رحمه الله- فى ١٦ ديسمبر ١٩٥٦. وهذه المراحل أشار إليها هيكل بسرعة خاطفة فى أثناء كتابة «مذكرات فى السياسة المصرية».

إن تكوين هيكل النفسى -كما أشرنا من قبل- جعله شديد الحياء.. ومن ثم أسلمه الحياء إلى قدر من الخجل والشح الشديد فى التعبير عن ذاته.. والحديث عن أسرته، فالأب مع حبّ الابن الأديب له - لم يكد يتحدث عنه.. أو عن والدته.. أو عن باقى أفراد الأسرة - باستثناء شقيقته إحسان، التى أهدى إليها رواية «زينب»، وكانت فيما يبدو قريبة منه فى العمر، وكان بينهما قدر من الصداقة والألفة. كذلك نجده ينزل ستارا كثيفًا على زواجه من كريمة عبد الرحمن رضا.. ولا يحدثنا عن أبنائه أو بناته.. وموقفه من كل منهم. كذلك الحال بالنسبة لأصدقائه وخصومه فى الحياة أو الفكر أو السياسة.

وقد استطعنا أن ننتزع إشارات سريعة ذكرها فى أثناء الحديث عن مذكراته السياسية، لذلك آثرنا -أن نشير إليها باختصار، حتى تكون واضحة لقارئ، لا يعرف الكثير عن حياة الرجل فى ذلك الزمان القريب/ البعيد. وهذه المذكرات قد طبع منها جزءان.. وثمة جزء ثالث لم يطبع عند ابنه الأستاذ أحمد- نتمنى أن يرى النور قريبًا بإذن الله.

* * *

أولاً: هيكل المحامى (١٩١٣)

استمرت فترة البعثة فى باريس من ١٩٠٩- ١٩١٢. ويجب أن نذكر أن هذه البعثة كانت على نفقة والده الخاصة، إذ لم تكن الجامعة المصرية قد تأسست بعدُ.. ولم تكن الحكومة فى هذه المرحلة تهتم - كثيرًا.. أو قليلاً- بأمر البعثات التعليمية. وقد عاد

هيكل من باريس فى أغسطس ١٩١٢، وفى ديسمبر من السنة نفسها فتح مكتبًا للمحاماة فى مدينة المنصورة عاصمة الدقهلية الجميلة.

ولم يكن قد تزوج بعد.. وكان يقضى معظم وقت فراغه فى القراءة.. وأحيانًا يسافر إلى القاهرة، ليقدم بعض مقالات سياسية وفكرية إلى صحيفة «الجريدة» التى كان يرأس تحريرها أستاذه لطفى السيد. كما نشر أيضًا بعض مقالات فى جريدة «المقطم».

فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر، وعزلت الخديوى عباس حلمى، ونصبت مكانه حسين كامل. وقد شددت الإدارة الإنجليزية قبضتها على الصحافة، لذلك عطلت كثيرا من الصحف ومنها «الجريدة» ١٩١٥.

ومن ثم اتفق هيكل مع مجموعة من أصدقائه على الكتابة فى صحيفة «السفور» التى كان يرأس تحريرها عبد الحميد حمدى. وقد نشر فيها بالاشتراك مع طه حسين مناظرة بعنوان: «الحرب والحضارة» سنة ١٩١٧.

فى هذه المرحلة انتدب هيكل -بالإضافة إلى الإسهام فى الكتابة الصحفية- انتدب للتدريس فى كلية الحقوق جامعة القاهرة. وقد سهل له ذلك كله أمر الحضور من المنصورة إلى القاهرة، والاتصال ببعض زملائه الذين تعرف عليهم فى باريس أو فى مصر ومتابعة الأحداث السياسية ومحاولة مناقشة الاتجاهات الفكرية السائدة إزاءها.

فى نوفمبر ١٩١٨ انتهت الحرب، وتم توقيع الهدنة.. وفى ١٣ نوفمبر من السنة نفسها تكون (وفد) برئاسة سعد زغلول للتفاوض مع الإنجليز من أجل استقلال مصر. وكان هيكل فى هذه المرحلة يتناقش مع بعض أصدقائه مثل:

مصطفى عبد الرازق، ومنصور فهمى، ومحمود عزمى، وعزيز ميرزا، فى كثير من المسائل الوطنية.. «واستقر الأمر عندنا على تأليف حزب أسميناه «الحزب الوطنى الديمقراطى». فلما تحدثنا عن الحزب لم نجد حين أردنا تصور جانبه السياسى أية مشقة، فمبادئ الحرية والحق والعدل المجرد عن الهوى، ومبدأ تقرير الأمم مصيرها كانت محل اتفاقنا جميعًا، وكلنا نريد لمصر الاستقلال والسيادة والكرامة والعزة.. وحين أردنا تصوير الجانب الاقتصادى لم يكن بمثل هذه السهولة.. فقد كان عزيز ميرزا أدنى إلى التطرف فى الاشتراكية، وكنت أنا على العكس أدنى إلى التطرف فى مبدأ الحرية الفردية»(١)

---

(١) مذكرات فى السياسية المصرية، جـ١ - ص ٨٠.

ثانيًا: هيكل الصحفى (١٩٢٢- ١٩٣٧)

لعل أهم مكسب لثورة ١٩١٩ هو إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ -الذى أعلن بمقتضاه أحمد فؤاد نفسه سلطانًا على مصر كخطوة فى سبيل الاستقلال.

كذلك ألف عبد الخالق ثروت الوزارة، من أجل أن تعد الدستور الذى عرف فيما بعد بدستور ١٩٢٣. وقد حرصت الحكومة على أن تمثل لجنة وضع الدستور طوائف الأمة المختلفة. وقد اشترك هيكل فى هذه اللجنة.. فى مرحلتى الإعداد والتحرير.

وهنا نود أن نشير إلى **دور هيكل البارز فى وضع أسس أول دستور مصرى فى العصر الحديث. من أجل هذا كان هيكل يثور ثورة عارمة،** إذا ما عُطل الدستور، أو حدثت تجاوزات لبعض بنوده. هيكل إذن واحد من صناع الحياة الدستورية فى مصر.. وأحد القانونيين العظام، الذين وظفوا دراسة القانون من أجل العمل السياسى وإقامة دعائم الحياة النيابية.

بعد تأليف الدستور -دستور ١٩٢٣- ظهر حزبان كبيران فى مصر هما:

١- **حزب الوفد:** بزعامة سعد زغلول.. ثم مصطفى النحاس بعد وفاة سعد سنة ١٩٢٧.

٢- **حزب الأحرار الدستوريين:** بزعامة عدلى يكن.. ثم محمد محمود.. ثم محمد حسين هيكل.

وهذان الحزبان - فى تقديرنا - ينتميان إلى حزب «الأمة» - الذى سبق أن كونه ورعاه أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد سنة ١٩٠٧. وقد انضمتْ معظم الجماعات الجماهيرية إلى حزب الوفد.. أما الجماعات المثقفة وبعض الذين اشتركوا فى وضع الدستور، فقد ألفوا حزبًا سموه «حزب الأحرار الدستوريين».

هذان الحزبان - فى الحقيقة - امتداد لحزب الأمة السابق، وقد خرج زعماء كل منهما من عباءة حزب الأمة. لكن حزب الوفد كان حزب الجماهير العريضة، أما حزب الأحرار الدستوريين فكان يمثل حزب (الصفوة) المثقفة. وكما كان حزب الأحرار الدستوريين امتدادًا لحزب الأمة، فقد كانت جريدته (السياسة) امتدادًا لصحيفة «الجريدة».

وقد رشح لطفى السيد هيكل ليكون رئيسًا لتحرير «السياسة» -التى صدر العدد الأول منها فى (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢)- وقد ذكر -فى هذا العدد- مؤسسو الحزب برنامجه وأهدافه. كما كتب هيكل مقاله الافتتاحى فى هذا الإطار أيضًا.

obeikandl.com

تلك (نقطة تحول) خطيرة فى حياة هيكل.. فقد ترك المحاماة، التى لم يكد يمارسها، ولم يحاول أن ينتظم فى سلك التدريس فى الجامعة، وآثر (التفرغ للصحافة والسياسة).. هنا ينبغى أن نشير إلى أن هيكل منذ ذلك التاريخ -بالإضافة إلى عمله الصحفى- كان المستشار الأول للحزب، ويشترك مع رئيسه فى وضع الخطب وتحديد المواقف -لأنه هو الذى يدافع عن سياسة الحزب فى الصحيفة.

وتمر الأيام.. ويؤلف سعد زغلول أول وزارة دستورية، جاءت إلى الحكم بالانتخاب فى ظل أول دستور للبلاد. لكن سعد جعل الوزارة والإدارة.. كما يقول هيكل «زغلولية لحمًا ودمًا...!!»، وأول ما فعله هو إعلان موقف الخصومة من الحزب المعارض وصحيفته. فبدأ هيكل يدافع عن موقف الحزب والمعارضة، وكتب مقالات عاصفة مثل: «هلموا يا أنصار الحرية فارفعوا العدوان على الحرية».

وقدم للمحاكمة بسبب مقالاته السياسية المعارضة أكثر من مرة. مثل المقالة التى نشرها فى أثناء تشكيل الحكومة الوفدية الثانية سنة ١٩٢٦، وكان عنوانه: «**نريد ائتلافًا وأساسُ الائتلاف الصراحة**».

وتحدث هذه المقالة ضجة كبيرة، فيطلب منه محمد محمود سكرتير الحزب -آنذاك- أن ينشر له كلمة فحواها أن مقال هيكل لا يعبر عن رأى الحزب. هنا تثور ثائرة هيكل، ويبلغه عن طريق محمد عبد الجليل أبو سمرة(*) أنه مصر على موقفه، فيحضر محمد محمود ويقول له: ألا تنشر كلمتى وأنا رئيس شركة السياسة؟! ويعلق هيكل على هذا قائلاً: «أحسست لسماع هذه الكلمة بأن ممثل رأس المال، يخاطب من يتقاضى مرتبًا، فقلت محتفظًا بهدوئى:

إذا كان رئيس شركة السياسة هو الذى يطلب منى النشر. فأنا مستعد له على شرط، وهو أن أنشر مع كلمة معاليكم استقالتى من رئاسة تحرير السياسة، وأننى قطعت كل صلة لى بها.

فأجاب: كلا يا سيدى لا تنشر كلمتى ولا تستقل، فسأنشرها فى (جريدة الأهرام»[1].

(*) أحد أعضاء الحزب البارزين.. وهو من قرية كفر بداوي مركز المنصورة. وقد تولي في آخر وزارة للأحرار الدستوريين منصب وزير الشئون الاجتماعية.

(١) مذكرات فى السياسية المصرية، جـ١ - ص ٢٨٢.

وقد أثبتت الأيام والحوادث صدق رأى هيكل، ولم تمض أسابيع حتى حل الائتلاف الصورى بين الأحزاب أوائل سنة ١٩٢٨.

فى بداية سنة ١٩٣٠ تولت وزارة جديدة برئاسة إسماعيل صدقى لتعدل الدستور، وتعطى الملك فؤاد سلطات أوسع. وقد حاول صدقى -بحكم صداقة تربطه بهيكل- أن يسكته، حتى لا ينتقد هو وصحيفته سياسة الوزارة، وأبدى استعداده لدفع ثمن هذا السكوت.

لكن هيكل لم يسكت، وعز عليه أن يصادر الدستور -الذى اشترك فى وضع مبادئه- وكانت معركة.. «كانت أعنف ما عرفت، لأن التكافؤ فيها لم يكن قائمًا على أساس من حرية الرأى واحترامه، ولأن القانون فيها أهدر، بل لأن قواعد الخلق نفسها أهدرت إلى حد كبير»(١).

بعد أن يئس صدقى من إسكات صوت هيكل أو تلفيق تهمة له، أصدر قرارًا يحرم رئاسة التحرير لمن صدر ضده حكم بالإدانة. ومن ثم أصبح إبراهيم المازنى رئيسًا للتحرير، وهيكل مديرًا لتحرير جريدة «السياسة».

بيد أن صدقى لم يصمد فى المعركة.. فأصيب بالشلل فى منتصف ١٩٣٣، وخلفه فى رئاسة الوزراء عبد الفتاح يحيى.. ولكن انتقاد الصحافة لسياسة الحكومة فى عهد وزارتى عبد الفتاح يحيى وتوفيق نسيم لم يكف، وقد آزرت مقالات الصحافة بعض الثورات الشعبية؛ ومن هنا تألفت لجنة من الوفد والدستوريين -كان هيكل أحد أعضائها- وقدمت خطابين إلى الملك فؤاد والإدارة البريطانية فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ مطالبة بإسقاط الوزارة الحالية، وتشكيل وزارة ائتلافية، وعودة دستور ١٩٢٣.

وبالفعل عاد الدستور فى اليوم نفسه، وسقطت الوزارة بفضل الصحافة والحركة الوطنية التى أزكاها بعض المثقفين ورجال الأحزاب الشرفاء - ومنهم هيكل. **وهذه أول مرة- وربما.. آخر مرة - تُقيل فيها الصحافة حكومة.. وهى حكومة توفيق نسيم سنة ١٩٣٥.**

وقد رأى بعض الساسة تكوين حكومة ائتلافية لتتفاوض مع الإنجليز فى أمر الجلاء عن مصر، لكن النحاس كان يرفض ذلك، ومن ثم تجرى الانتخابات، ويشكل حزب الوفد الوزارة سنة ١٩٣٦، ثم يلغى المعاهدة إلغاء شكليًا.

---

(١) مذكرات فى السياسية المصرية، جـ١ - ص ٣٥٠.

وقبل هذه الفترة أصدر هيكل مجلة «**السياسة الاسبوعية**» لتكون نافذة للأدب والفن والعلم. وقد صدر العدد الأول منها فى ١٣ مارس سنة ١٩٢٦. وقد قامت هذه المجلة بدور كبير فى الحركة الفكرية والثقافية، حيث استكتبت كبار الأدباء والمفكرين، مثل: هيكل - المازنى - طه حسين - عبد العزيز البشرى - محمد عبد الله عنان.. وغيرهم.

من خلال هذا العرض السريع الموجز يتضح أن هيكل تفرغ للعمل الصحفى خمسة عشر عامًا.. ومع أنه كان يرأس تحرير جريدة (حزبية)، فإنه لم يكن يكتب من منظور حزبى ضيق الأفق، وإنما كان يصدر عن وجهة نظر وطنية عامة - إلى حد كبير. فهو إذن (**نموذج مثالى) للصحفى المثقف النزيه**، الذى يعمل لصالح الوطن قبل أن يعمل لصالح الحزب. إنه نموذج دال للصحفى المثقف المؤمن بدوره الوطنى، المتمسك برأيه، المعتز بنفسه مع الأنصار والخصوم على حد سواء.

* * *

ثالثًا: هيكل الوزير (١٩٣٧- ١٩٤٢)

بعد توقيع معاهدة أو اتفاقية ١٩٣٦.. لم تكف حكومةُ الوفد عن تضييق الخناق على الصحافة، فعطلت صحيفة «السياسة الاسبوعية». وقد مال هيكل فى هذه الفترة إلى **المزاوجة بين الصحافة والتأليف**، فأصدر فى هذه الفترة كتابه الخالد «حياة محمد» (١٩٣٣).. و « فى منزل الوحى» (١٩٣٥) و «ثورة الأدب» (١٩٣٣). وفى هذه المرحلة أيضًا يعين هيكل عضوًا فى مجلس الشيوخ فى مايو ١٩٣٦ ممثلاً (تيار المعارضة) فى المجلس؛ أى أنه كان صحفيًا معارضًا.. وبرلمانيًا معارضًا كذلك. وقد اتخذ من منصبه فى مجلس الشيوخ وسيلة نقدية هادفة مثلما كان يفعل من خلال دوره فى الصحافة.

وقد أثار -حينذاك- قضية هامة، وهى قضية توليد الكهرباء من خزان أسوان، وكيف اتفقت حكومة النحاس فيها مع شركة إنجليزية دون إجراء مناقصة عامة، مما يدل على وجود تواطؤ بين الاثنتين: الحكومة والشركة.

وفى يوليو ١٩٣٧ يزور فلسطين للاستجمام والوقوف على ما يجرى هناك من مشكلات بين العرب واليهود. ويرى عناصر تكون المشكلة على أرض الواقع.

وقد أفادته هذه الرحلة -التى لم تستمر سوى عشرة أيام- فى تكوين فكرة صادقة عن فلسطين وأماكنها المقدسة ومأساة شعبها المنكوب، ولذلك فقد دافع عن مشكلة فلسطين دفاعًا عظيمًا حين مثل مصر سنة ١٩٤٧ فى الأمم المتحدة، من أجل عرض مشكلة العرب واليهود فى فلسطين.

* * *

عاد هيكل من البعثة فعمل بالمحاماة ثم الصحافة، وأخيرًا صار **عضوًا فى مجلس الشيوخ** سنة ١٩٣٦. ويبدو أن هذه النقلة كانت بداية لعمله المتواصل فى دائرة (السياسة) - وهى دائرة كما نعلم تشبه دائرة اللهب - ومن هنا تبدأ **مرحلة جديدة** من مراحل حياة هيكل. فبعد أن أضرت وزارة الوفد برئاسة النحاس بمصالح البلاد والعباد صدر مرسوم ملكى بأن يؤلف محمد محمود -رئيس حزب الأحرار الدستوريين آنذاك - وزارة لتشرف على الانتخابات.

ويصبح هيكل «وزيرًا للدولة فى وزارة الداخلية» فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٧.

وفى فبراير ١٩٣٨ ينعم عليه برتبة «الباشوية»، وبعد نجاح حزب الأحرار فى الانتخابات يشكل محمد محمود الوزارة، **ويختار هيكل لنفسه «وزارة المعارف»** - (وزارة التربية والتعليم اليوم).

ولا ريب فى أن اختيار هيكل لهذه الوزارة يعكس مدى رؤيته الثاقبة وبعد نظره ورغبته الصادقة فى التطوير والتغيير والتنوير. **إن التعليم يعد أخطر أجهزة الدولة الحديثة، لأن صلاح التعليم يعنى صلاح المجتمع.** بالإضافة إلى أن الطلاب فى الجامعة والمدارس كان لهم دور كبير فى العمل السياسى فى هذه المرحلة.

وفى أثناء عمله بالوزارة نادى باللامركزية فى دور الحكومة عامة وفى وزارة المعارف خاصة، لذلك أنشأ -(المناطق التعليمية).. وأصدر بها قانونًا، لتكون فى كل مديرية (محافظة) إدارة تعليمية خاصة بالإقليم.

كذلك عمل على إنشاء (جامعة الإسكندرية) رغبة فى توسيع قاعدة الدراسة الجامعية (لم تكن هناك سوى جامعة القاهرة وعين شمس).

كما نادى -لأول مرة- بأن يكون مديرا «دار الكتب».. و «مصلحة الآثار»

مصريين. كما دعا إلى ضرورة العناية بإعداد مـدرس اللغة العربية.. كما أنه أيضًا كان من المتحمســين لفكرة إنشاء «مجمع اللغة العربية» ومن أوائل المنادين بهــا. وكان عضواً بارزًا فيه بعد إنشائه سنة ١٩٤٠.

وهو أول من أدخل مادة «التربية البدنية» فى المراحل الدراسية المختلفة.

كذلك دعا أيضًا إلى ضرورة استقلال الجامعة عن وزارة المعارف، وأن يكون للجامعة نظامها المستقل بالنسبة لتعيين أعضاء هيئة التدريس وترقياتهم ورواتبهم وسائر شئونهم.

هذه بعض الآراء التقدميـة والأعمال الجليلة التى نادى بها.. وحققـها هيكل فى أثناء عمله بوزارة المعارف خلال الفترة من ديسمبر ١٩٣٧ إلى أغسطس ١٩٣٩. أليس ذلك بكافٍ، لكى يوضح لنا أن حياة الإنسان كل متكامل..؟!

وقد ألفت وزارة جديدة فى صـيف ١٩٤٠ برئاسة حسن صبرى، وقـد اختار هيكل لنفسه فيها وزارة المعارف، حتى يواصل برنامجه فى الإصلاح التعليمى والإدارى بالنسبة للمدارس والجامعات.

وقد خلف حسين سـرى حسن صبرى بعد وفاته فى رئاسـة الوزارة، واستمر هيكل فى منصبه. ومع نذر الحرب (الكونية)، العالميـة الثانية كان يدعو هيكل إلى ضرورة أن تبقـى مصر على (الحـياد) دون أن تنحـاز إلى صف الإنجليز والحلـفاء.. أو صف دول المحور (ألمانيـا - إيطاليا - تركـيا). ويبـدو أن هذه السيـاسة المحايدة لمصـر، هى التى جـعلت الإدارة الإنجلزية ترسل قواتهـا وتحيـط بقصـر عابدين ودباباتهـا - مقـر الملك فاروق- فى ٤ فبـراير ١٩٤٢، وتطلب منه إقالة وزارة حسين سـرى، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة مصطفى النحاس.

بعد تشكيل حكومة النحـاس يخرج هيكل من الوزارة، ويعود لمقعده فى مـجلس الشيوخ. وقـد فرضت حكومـة النحـاس الأحكام العـرفيـة، ورضخت لـكل ما تطلبـه الإدارة الإنجليزية، ولم تحـاول أن تخفف بعض الأعـباء عن كاهل الشـعب، بل على العكس كانـت ترتكب فى حقـه بعض المظالم والآثام(١). **فـتكونت ضدها مـعارضة قـوية -فى مجلس الشيـوخ، كان على رأسـها:** أحمـد ماهر - إسماعـيل صدقى - حسـين سرى -

(١) يراجع فى هذا: عبد الرحمن الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية، جـ٣، ص ١٠٠
- هيكل: مذكرات السياسة المصرية، جـ٢، ص ١٢٠.

هيكل - مكرم عبيد.. فكانوا ينقدون الوزارة نقداً مراً فى كثير من تصرفاتها المخلة بالدستور، والجائرة بالنسبة لجماهير الشعب.. وقد شجعهم على هذا أن الملك فاروق نفسه كان غير موافق على الوزارة التى فرضت رغم أنفه، وميلها الشديد لمعاونة الإنجليز دون استشارة الملك. وقد نجحت المعارضة، وأدت إلى إقالة وزارة النحاس فى أكتوبر ١٩٤٤، وتكليف أحمد ماهر بتشكيل وزارة جديدة، يكون هيكل فيها وزيراً للشئون الاجتماعية والمعارف للمرة الثالثة.

ويجب أن نشير إلى أن هيكل قد أصبح (رئيسًا لحزب الأحرار الدستوريين) بعد وفاة محمد محمود سنة ١٩٤٣ - وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى إعلان إلغاء الأحزاب فى مصر فى النصف الثانى من سنة ١٩٥٢.

فى هذه الفترة أيضًا وقع «**بروتوكول الإسكندرية**» فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤، الذى يقضى بإنشاء «**جامعة الدول العربية**». وهنا ينبغى أن نلفت الانتباه إلى الجهد، الذى بذله هيكل فى الدعاية لهذا المشروع (القومى) وتوحيد كلمة العرب حوله.

فى تلك الأثناء تجرى انتخابات، يحدث على إثرها تعديل فى مسار حياة هيكل السياسية، حيث يخرج من الوزارة ويعين فى ١٨ يناير ١٩٤٥ «**رئيسًا لمجلس الشيوخ**».

ومعلوم أن من كان يشغل هذا المنصب يقوم بدور (زعيم المعارضة) السياسية فى المجلس وفى المجتمع فى آن واحد. وهذا المنصب الجديد يعد تتويجًا لجهود هيكل فى ميدان العمل السياسى، واعترافًا بدوره الوطنى الجليل.

وقد قام هيكل بحركة سياسية جريئة تصلح لأن تكون النهاية السعيدة لحياة رجل وطنى شريف، ذلك أنه سمح فى مايو سنة ١٩٥٠ بمناقشة **قضية الأسلحة الفاسدة**، التى أدت إلى هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين، وفتح ملف مشتريات الجيش من هذه الأسلحة، ومن المسئول عن هذه المشتريات. ثم قضية ما يحصل عليه أعوان الملك وبعض الأمراء والأميرات من أموال لمشروعات لا تقام حتى فى الخيال(١).

دفع هيكل ثمن جرأته ووطنيته، حيث أصدر الملك فاروق قرار عزله عن رئاسة مجلس الشيوخ فى ١٧ يونيو ١٩٥٠، وقد أقصى ضمن هذا القرار كل ممثلى المعارضة.. ومنهم أحمد لطفى السيد.

---

(١) تراجع مضبطة مجلس الشيوخ المصرى فى ٢٩، ٣٠ مايو ١٩٥٠.

وقد آثر هيكل أن ينسحب من الميدان دون ضجة، لأنه نظر إلى الموضوع من الناحية الشخصية، وخشى أن يتهم بحرصه على المناصب. ولكن فاته كما يذكر: «أن هذا الاعتداء وقع على المجلس يوم كنت أمثله، وعلى الدستور يوم كنت مكلفًا بالمحافظة عليه، وأن الواجب كان يقتضى أن أدفع هذا الاعتداء ما استطعت إلى دفعه سبيلاً. . .»[١].

هكذا ترك هيكل العمل السياسى العام - وإن بقى رئيسًا للحزب. ويبدو أن عمل الحزب كان شبه محصور بعد أن تولت حكومة الوفد سنة ١٩٥٠. وقد عاد هيكل إلى الكتابة مرة أخرى، واستكمل تدوين معظم مذكراته السياسية، وشارك فى بعض المؤتمرات الدولية.

* * *

وبعد أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، شكلت «محكمة الثورة» لمحاكمة بعض الساسة، الذين أفسدوا الحياة الساسية. لكنها لم تدن هيكل، ولم توجه إليه أية تهمة، بل على العكس كان شاهد إثبات على بعض المفاسد التى قام بها بعض رجال الوفد فى العهد الملكى قبل الثورة.

وكعادة الرجل فى العفة والشرف والحياد «كان لا يتشفى، ولا يشمت، وإنما ينطق بالحق والصدق. وهذا ما شهدت به صحيفة الوفد نفسها (المصرى) فى هذا الوقت[٢].

بعد أن ألغت حكومة الثورة الأحزاب المصرية كلها سنة ١٩٥٢ -عاد الرجل مرة أخرى إلى قلمه، وواصل كتابة بعض أعماله السياسية والدينية والأدبية، حيث ختم حياته برواية «هكذا خلقت» -١٩٥٦.

وعلى هذا فقد بدأ هيكل أديبًا.. وظل الأدب - رغم شواغله الكبرى - واحدًا من أهم مجالات نشاطه الثقافى الممتد طوال ما يقرب من نصف قرن.

* * *

وقبل أن ننهى هذا الجزء الخاص بحاة هيكل فى مجال السياسة، نشير إلى أن تراثه الفكرى فيه، يشتمل على ثلاثة مؤلفات مهمة هى:

(١) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ٢، ص ٢٣٨.

(٢) جريدة «الوفد» - ١٣ نوفمبر ١٩٥٣.

١- دين مصر العام La Dette Publique Egyptien

وهو موضوع الرسالة التى حصل بها من جامعة السربون على درجة الدكتوراه فى القانون سنة ١٩١٢. يتناول فيه قضية الديون التى استدانتها مصر فى أثناء حفر قناة السويس، والتى كانت سببًا مباشرًا للتدخل الأوربى فى شئون مصر السياسية والاقتصادية. ونتمنى أن تترجم هذه الرسالة إلى العربية، لأنها لا تزال إلى اليوم مطبوعة طبعة فرنسية فقط. إن هذه الرسالة جزء من تاريخ مصر، وإذا كان مؤلفها قد مات.. فإن تاريخ الوطن لا يموت..

٢- السياسة المصرية والانقلاب الدستورى

هذا الكتاب -الذى ألفه هيكل وزميلاه إبراهيم المازنى، ومحمد عبد الله عنان- كان بديلاً عن جريدة «السياسة» التى عطلها إسماعيل صدقى فى أواخر سنة ١٩٣٠.

والكتاب - من أوله إلى آخره - يتناول بالنقد الموضوعى والتعليق الحاد -سياسة حكومة صدقى، التى لم تكن تستند إلى تأييد شعبى أو سلطة نيابية. كما ينتقد حزب الاتحاد -الذى أسسه صدقى- هذا الحزب الذى لا يعرف لنفسه برنامجًا سياسيًا، ولا يقيد نفسه أمام الأمة بخطة أو غاية معينة، «ولا عجب فإنه حزب اقترح إنشاؤه الإنجليز، ليخدموا به التجربة التى رأوا فى ذلك الظرف إجراءها». كما يتناول -بالنقد- ميل صدقى إلى مناصرة الأجانب، حتى ليعد أجنبى الهوى.. «فهو وزير لغير مصر، وإن كان يتولى وزارة مصر».

وهذا الكتاب -الذى ألفه هيكل والمازنى وعنان- ثمرة مرة من ثمرات الضيق التى منى بها أولئك الكتاب فى فترة حرجة من فترات تاريخ وطنهم، شديدة الظلم حالكة الظلمة.

وقد سدَّ هذا الكتاب فراغ مصادرة جريدة «السياسة»، التى أوقفتها حكومة صدقى الجائرة.

٣- مذكرات فى السياسة المصرية

كتاب مكون من ثلاثة أجزاء.. الأولان منه منشوران، والثالث لم يكتمل.. وبالتالى فقد بقيت فصول الجزء الثالث منه مخطوطة عند أسرته. والكتاب يرصد بقدر من الدقة فى العرض والموضوعية فى التأليف ما شارك فيه هيكل من أحداث منذ تولى رئاسة تحرير جريدة «السياسة» سنة ١٩٢٢ - إلى قيام ثورة ١٩٥٢- أى أن هذا الكتاب

يؤرخ لثلاثين سنة من تاريخ مصر الحديث من (منظور حزبى) إلى حد ما، لكن المؤلف حاول أن يكون موضوعيًا -إلى حد كبير- فيما يعرض له من أحداث وأخبار، وهو يقدم صفحة مهمة من تاريخ الوطن. وهيكل نفسه منذ وقت مبكر (١٩٢٩) يدعو إلى كتابة التاريخ من منظور وطنى صحيح، يثبت بطلان الصورة الزائفة التى يضعها بعض مؤرخى الغرب.. «الواقع أن تاريخ بلادنا لم يضعه حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة. اللهم إلا ما تعلق ببعض جوانب العصر الفرعونى من عصوره. فأما ما بعد ذلك فقد شوهه الساسة الأجانب لمآربهم الخاصة»(١).

هيكل إذن كان ينادى بضرورة كتابة التاريخ المصرى بشكل موضوعى محايد، وأن يقوم بهذا العمل كتابٌ مصريون، ليكونوا أقدر على كتابة تاريخ بلادهم من منظور وطنى منصف. ومن أجل هذا كتب مذكراته السياسية، التى يوضح الهدف منها بقوله: إن هذه المذكرات «تصوير للحوادث كما وقعت، وتصوير كذلك لاتجاهات الرأى المختلفة. وقصدى من هذا التصوير أن يقف أبناء اليوم وأبناء الغد على ما كان قائمًا بنفوس آبائهم والذين سبقوهم ممن كان لهم فى الميدان السياسى وفى الحياة العامة نشاط قل أو كثر. وما كان لى أنا من نشاط فى هذا الميدان بالتأييد أو المعارضة»(٢).

ويزيد من أهمية هذه المذكرات التاريخية الأسلوب الأدبى الرشيق الذى كتبها هيكل به. ومن هنا فإن **الكتاب فكرى فى موضوعه، أدبى فى طريقة تعبيره.**

* * *

تلك هى الأطر العامة: الأدبية والصحفية والسياسية، التى شارك فيها هيكل. ومن هنا تتضح كم هى جليلة سيرة هذا الأديب الصحفى السياسى، وكم هى مشرقة صورة ذلك الإنسان -موسوعى الثقافة.. متعدد النشاط، الذى خدم الأدب والدين والصحافة والسياسة.

إنه واحد من جيل دعاة التجديد والنهضة، ذلك الجيل الذى يعد بحق «**جيل العمالقة**»، الذى أثرى حياة وطنه وأمته - على كافة المجالات. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

* * *

(١) هيكل: تراجم مصرية وغربية، ص ٧.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ١ ص ٥.